

آني إرنو

الحدث

@ketab_n

ترجمة: سحر ستّالة

منشورات الجمل

رواية

آني إرنو

الحدث

ترجمة: سحر ستَّالة

مراجعة: محمد جليد

منشورات الجمل

آني إرنو: **الحدث**

آني إرنو، روائية فرنسية معاصرة. أمضت شبابها في «إيفيتو» في منطقة النورماندي. حائزة «الأغريغاسيون» في الآداب الحديثة، مارست التدريس في «أنيسي» و«بونتواز». تعيش اليوم في «سيرجي» بمنطقة «لو فال دواز». فازت روايتها «الساحة» بجائزة «رونودو» (١٩٨٤). صدر لها عن منشورات الجمل: **الاحتلال**، ٢٠١١؛ **شغف بسيط**، ٢٠١٩؛ **امرأة**، ٢٠١٩.

آني إرنو: **الحدث**، الطبعة الأولى
ترجمة: سحر ستّالة، مراجعة: محمد جليد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أمنيتي المزدوجة أن يصبح الحدث مكتوباً
وأن يصبح المكتوب حدثاً.

ميشال ليريس

قد لا تكون الذَّاكرة إلَّا تحديقاً في الأشياء
حتى نهايتها.

يوكوتسوشيما

نزلتُ إلى شارع بَارْبيسْ. وجدتُ، كما المرَّة الماضية، رجالاً ينتظرون مجتَمعين على حافة محطَّة الميترو المُعلَّق. بدأ الناس يتقدَّمون نحو الرَّصيف، يحملون أكياس محلَّات «تاتي» وردِيَّة اللَّون. اتَّجهتُ نحو شارع ماجونتا ولمحتُ متجر بيلي الذي عُلِّقت سُتُراتُ تزلج على واجهته. تقدَّمت نحوي امرأة ترتدي جوارب سوداء موشَّاة بنقوش كبيرة فوق ساقين قويَّتين. كان شارع أمبرواز-باريه شبه خالٍ من بدايته حتى محيط المستشفى. سِرت على طول الممر الذي تعلوه قبَّة في جناح إليزا. لم ألحظ، في بداية الأمر، وجود كُشكٍ للموسيقى في السَّاحة المُحاذية للرِّواق ذي النَّوافذ. تساءلت كيف سأرى هذه الأشياء لاحقاً، عندما أغادر المكان. دفعت الباب رقم ١٥ وصعدت طابقين. في بهو قسم الكشف، سلَّمتُ البطاقة التي سُجِّل عليها رقمي. بحثَت المرأة في ملفٍّ وأخرجت مُغلَّفاً من ورق كْرافت

يحوي بعض الوثائق. مدَدتُ يدي لتسلُّمها، لكنها لم تعطنيها. وضعَت المغلَّف على الطاولة وأمرتني بالجلوس حتى يُنادى عليّ.

تنقسم قاعة الانتظار إلى حُجرتين متلاصقتين. اخترت أقربها إلى باب الطَّبيب وأكثرها اكتظاظاً بالمرضى. ثم شرعتُ في تصحيح أوراق الامتحانات التي جلبتها معي. دخلت على أثري شابَّة صغيرة شقراء ذات شعرٍ طويلٍ مدَّت رقمها هي الأخرى. تأكَّدتُ من أن موظفة الاستقبال لم تعطها وثائق المُغلَّف، وأنه سينادى عليها مثلي. في قاعة الانتظار أيضا ثلَّة من الرِّجال جلسوا متباعدين بعضهم عن بعض، من بينهم رجل ثلاثيني يرتدي على طريقة الموضة، ذو صلعة خفيفة، وشابٌّ أسود يضع سمَّاعات وُكمان، ورجل خمسيني، ذو وجه متغضن، ينغرس في كرسيِّه. بعد الفتاة الشَّقراء، وصل رجل رابع، جلس بحزم وأخرج كتاباً من محفظته. ثم دخل زوجان: هي حامل ترتدي سروالاً قصيراً. أما هو فيلبس بدلة رسميَّة بربطة عنق.

كانت الطَّاولة خالية من الجرائد. تناثرت فوقها فقط نشراتٌ تصفُ ضرورة تناول منتجات الألبان و«كيفيَّة التَّعامل مع الاختبارات المصليَّة». كانت الزوجة تتحدَّث إلى زوجها، تقف وتحضنه بين ذراعيها بحنان، ثم تداعبه.

فيما ظلَّ هو صامتاً وجامداً في مكانه واضعاً يديه على مطريَّته. غضَّت الفتاة الشقراء عينيها، تكاد تغمضهما. بدت في وضعها ذاك مُتحجِّرة، وقد طوت سُترتها الجلديَّة على ركبتيها ووضعت عند قدميها حقيبة سفر كبيرة وحقيبة ظهر صغيرة. تساءلتُ عمَّا إذا كانت تملك أسباباً أعمق من أسباب الآخرين لتشعر بالخوف. لعلَّها جاءت من أجل الحصول على نتائج فحصها قبل أن تذهب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع أو تعود إلى أبويها في بروفانس. خرجت الطَّبيبة من مكتبها، وهي شابَّة نحيفة، حادَّة الطَّبع، ترتدي تنُّورة وردية اللون وجوارب سوداء. نادت على رقمٍ. لم يتزحزح أحد من مكانه. كان رقماً لشخص آخر من الحجرة المجاورة، فتى مرَّ مسرعاً، لم أر منه إلا نظارات وشَعراً شدَّه على شكل ذيل حصان.

نودي على الشَّاب الأسود، ثم على أشخاص من الحجرة المجاورة. لا أحد كان يتكلَّم أو يتحرَّك ما عدا الزَّوجة. كنا نكتفي جميعاً برفع أعيننا كلَّما ظهرت الطبيبة عند باب مكتبها أو خرج منه أحد.

رنَّ جرس الهاتف عدَّة مرَّات من أجل تحديد مواعيد أو معرفة معلوماتٍ عن ساعات العمل. حدث أن ذهبت موظَّفة الاستقبال للبحث عن أحيائيٍّ ليرُدَّ على الشَّخص

المتَّصل. قال ثم كرَّر قوله: «كلَّا إنَّها بكميَّات عاديَّة.. عاديَّة جداً». تردَّد صدى كلماته في الصَّمت المخيِّم على المكان. كان الشخص المتَّصل، بالتأكيد، مصاباً بفيروس نقص المناعة المكتسبة.

انتهيتُ من تصحيح أوراق الامتحانات، وقد استبدَّ بذاكرتي المشهد الضَّبابي نفسه ليومَي سبت وأحد من شهر يوليو، بالإضافة إلى حركات الحب والقذف. وبسبب هذا المشهد المنسيِّ لمدة أشهر، كنت أجد نفسي هنا. كان العناق وحركة الجسدين العاريين يبدوان لي شبيهين برقصة موت. وهُيِّئ إليَّ أنَّ هذا الرَّجل الذي وافقت على لقائه مرة ثانية بتكاسل، لم يأت من إيطاليا إلا لينقل إليَّ مرض السيدا. غير أني لم أنجح في إيجاد رابط بين حركات الجسد ودفء الجلد والمني، ووجودي هنا. ظننت أنه لن توجد علاقة قطُّ بين الجنس وشيء آخر.

نادت الطَّبيبة على رقمي. وقبل أن أدخل إلى المكتب، استقبلتني بابتسامة عريضة. فتقبَّلتُ ابتسامتها تلك على أنها بشرى سارة. حالما أغلقت الباب قالت بسرعة: «الفحص سلبي». فانفجرتُ ضاحكة. ما قالته لي بعد ذلك خلال المقابلة لم يثر اهتمامي. كانت تبدو مبتهجة ومتواطئة.

نزلت الدَّرج بسرعة فائقة وعدت أدارجي دون أن أنظر إلى أيٍّ شيء. كنت أقول في قرارة نفسي إنني نجوت مرة أخرى. تمنَّيت معرفة ما إذا كانت الفتاة الشَّقراء قد نجت هي أيضاً. كان الناس المحتشدون في محطة بَرباسْ قد وقفوا متقابلين على الأرصفة. وقد تناثرت أكياس محلاَّت تاتي الورديَّة هنا وهناك.

أدركتُ أنه سبق لي أن عشت هذه اللَّحظة في لاريبوازيار، بالطريقة ذاتها التي انتظرت بها رأي الطبيب «ن» عام ١٩٦٣، بالفزع نفسه والشك نفسه. تقع حياتي إذاً بين طريقة أوجينو[1] والعازل الطبي الذي يباع بفرنك واحد عند الموزِّعين. إنها طريقة جيدة للتحكُّم بها، بل لعلَّها أكثر أمناً من الطرق الأخرى.

---

(١) وسيلة من وسائل منع الحمل.

في شهر أكتوبر من سنة ١٩٦٣، انتظرتُ لأكثر من أسبوع، وأنا في رُوان، أن تأتيني العادة الشَّهرية. كان يوماً مشمساً ودافئاً شعرت خلاله بجسدي مثقلاً ومتعرِّقاً تحت معطفي الذي أخرجته في وقت مبكر، خاصة داخل المتاجر الكبرى التي أهيم فيها على وجهي، أو أشتري منها جوارب في انتظار استئناف الدِّراسة. ولطالما تمنيت، إثر عودتي إلى غرفتي في الحي الجامعي للفتيات الواقع في شارع هيبروفيل، أن أرى بقعة دم في تُبَّاني. ثمّ بدأت أكتب في مفكِّرتي كلَّ مساء بأحرف بارزة مسطَّر أسفلها: لا شيء. كنت أستيقظ ليلاً، وأدرك على الفور أنه لا يوجد «شيء». في السنة السابقة، خلال الفترة ذاتها، بدأت في كتابة رواية. كم يبدو لي هذا بعيداً جداً، كأنه لن يتكرَّر أبداً!

ذات ظهيرة، ذهبت إلى السينما لمشاهدة فيلم إيطالي بالأبيض والأسود: «*إيل بوسطو*» (الوظيفة). كان فيلماً

بطيئاً وحزيناً، تدور أحداثه حول شاب حديث العهد بالعمل، يشغل منصب موظَّف في مكتب. عندما رأيت الجسد النَّحيل واللَّامبالي للموظَّف الصغير، والمهانة التي يتعرَّض لها، وأمام الكآبة اليائسة للفيلم أدركت أنَّ عادتي الشهرية لن تعود.

في إحدى الأماسي تركت خطواتي تقودني نحو المسرح رفقة فتيات من الحي الجامعي كنَّ يملكن بطاقة إضافيَّة لعرض مسرحيَّة «*محاكمة سرية*» وكانت تلك المرَّة الأولى التي سأشاهد فيها مسرحية معاصرة. كانت القاعة مُكتظَّة. كنت أرى خشبة المسرح البعيدة المضاءة بقوّة، وما فتئت أفكر أن دم دورتي الشهرية لم ينزل بعد. لا أذكر سوى شخصية 'إستيل' الشقراء التي ترتدي فستاناً أزرق، والفتى ذي العينين الحمراوين بلا أجفان، والذي يرتدي لباساً على طريقة الخدم. كتبت في مفكرتي: «رائع، حبذا لو لم أكن أحمل هذا الواقع أسفل ظهري».

في نهاية شهر أكتوبر، كففت عن الاعتقاد بأنها ستعود. وحدَّدتُ موعداً مع اختصاصيّ النساء والتوليد، الدكتور 'ن'، يوم ٨ نوفمبر.

في نهاية أسبوع عيد جميع القدِّيسين، عدت كما عادتي إلى منزل والدَيَّ، يخالجني شعور بالخوف من أن تسألني والدتي عن تأخُّر العادة الشهرية. كنت واثقة من أنها تتفقَّد تُبَّاني كلَّ شهر بفرز الثياب المتَّسخة التي كنت أحملها إليها من أجل غسلها.

استيقظت يوم الاثنين وأنا أشعر بألم في المعدة، وبمذاق غريبٍ في فمي. في الصَّيدليَّة وصفوا لي الهيباتوم، وهو سائل متخثِّر وأخضر يزيد اختناقي.

اقترحت عليَّ فتاة من الحيِّ الجامعي تُدعى «أو» تقديم دُروسٍ في اللُّغة الفرنسية في مؤسسة سانت دومينيك عوضاً عنها. كانت تلك مناسبة جيدة لكسب بعض المال بالإضافة إلى منحتي. استقبلتني المديرة، وهي تمسك بيدها كتاب *لاغارد وميشار*[1] الخاص بالقرن التَّاسع عشر. أخبرتها بأنه لا خبرة لي في التدريس وأن هذه التجربة تشعرني بالفزع. إنَّه شعور عادي، فهي أيضاً لم تتمكَّن من الدخول إلى قسمها، قسم الفلسفة، طوال سنتين إلا ورأسها مُطرقٌ ونظرها محدِّق في الأرض. جلست على كرسيّ قبالتي وهي تحاكي

---

(١) كتاب مدرسي يتكوَّن من عدَّة أجزاء يحوي سِير العديد من الكتَّاب الفرنسيين ومقتطفات من نصوصهم.

هذه الذكرى ولم أعد أرى منها سوى جمجمتها المُغطَّاة بوشاح. عندما خرجتُ حاملة كتاب *لاغارد وميشار* الذي أعارتني إياه، تخيَّلتُني في قسم الثَّانوي تحت أنظار الفتيات، فشعرتُ بالغثيان. في اليوم التالي، اتَّصلتُ بالمديرة قصد إبلاغها بعدولي عن تقديم الدُّروس، فطلبت مني بجفاء أن أعيد الكتاب.

بينما كنت أتجه، يوم الجمعة الموافق للثامن من نوفمبر، نحو ساحة البلديَّة لأستقلَّ الحافلة قصد الذهاب إلى عيادة الدكتور «ن» الكائنة بشارع لافاييت، التقيت بجاك. س، وهو طالب في قسم الآداب، وابن مدير أحد مصانع المنطقة. كان يريد أن يعرف سبب ذهابي إلى السَّاحل الشَّمالي. أجبته بأنني أعاني من ألم في معدتي، وأنني أقصدُ «ستوماتولوغ»[1]. هنا أمسكني بالجرم المشهود: الـ«ستوماتولوغ» لا يعالج المعدة، بل التهابات الفم. تركته فجأة عندما وصلت الحافلة، خشية أن يشكَّ في شيء بسبب خدعتي، وحتى لا يرافقني إلى بوابة عيادة الطبيب.

في اللَّحظة التي نزلت فيها من السرير ومريولي الأخضر

(١) Stomatologue: طبيب يعالج التهابات الفم.

الطَّويل ينزل حتى فخذَيَّ، أخبرني طبيب النساء بأنني حامل حتماً. ما كنت أحسبه ألماً في المعدة كان غثياناً إذاً. ومع ذلك، وصف لي حُقَناً حتى تعود عادتي الشهرية، لكن لم يبدُ عليه أنه واثق من فاعليَّتها. على عتبة الباب، ابتسم لي بمرح قائلاً: «أطفال الحبِّ هم الأجمل دائماً». يا لها من جملة رهيبة!

عدت إلى الحيِّ الجامعي مشياً. كتبت في المفكرة: «أنا حامل. يا للهول!».

في بداية شهر أكتوبر، مارست الحبَّ مرات عديدة مع «پـ.»، وهو طالب في قسم العلوم السياسية، التقيت به خلال العطلة وذهبت لرؤيته في بوردو. كنت أعرف أنني في فترة حرجة حسب روزنامة أوجينو لمراقبة الولادات. لكنني لم أعتقد «أن ذلك الشَّيء قادر على النمو» داخل بطني. لم أكن أشعر، في غمرة الحب والمتعة، أنني جسد مختلف، من حيث الجوهر، عن أجساد الرِّجال.

كلُّ صور إقامتي في بوردو- الغرفة التي تقع في ساحة باستور، وضجيج السَّيارات الذي لا ينقطع، والسَّرير الضيق، ومطعم شرفة مونتان، والسينما التي شاهدنا فيها فيلم *اغتصاب نساء السَّابين*- لم يكن لها سوى معنى

واحد: كنت هناك دون أن أعلم أنني بصدد التَّحوُّل إلى امرأة حامل».

كانت الممرِّضة في المركز الإقليمي للأعمال الجامعيَّة والمدرسيَّة قد حقنتني مساء، دون أن يصدر عنها أيُّ تعليق، وأعادت حقني مرَّة أخرى في صباح اليوم التَّالي. حدث ذلك في نهاية أسبوع ١١ نوفمبر. عدت إلى منزل والدَيَّ. وفي لحظة ما، سال مني دم وردي اللَّون على نحو سريع ومختصر. وضعت التُّبان والبنطال من القماش المبقَّعين على حزمة الثياب المتسخة على نحو ظاهر. (كتبت في المفكِّرة: دفقٌ قصير كافٍ لمقايضَة والدتي») عند عودتي إلى رُوان، اتَّصلت هاتفياً بالدكتور «ن» الذي أكَّد لي الحمل وأخبرني أنه سيرسل إليَّ شهادة الحمل. استلمتها في اليوم التالي: وضع *الآنسة آني دوشيزن* مرتقب يوم ٨ يوليو ١٩٦٤ . تخيَّلت الصيف وشمسه الحارقة، فمزَّقتُ الشَّهادة.

كتبت إلى «پـ.» وأبلغته بأنني حامل وأنني لا أرغب في الاحتفاظ بالجنين. كنا انفصلنا غير واثقين مما سيحصل في علاقتنا بعد ذلك، لكنَّني شعرت بشيء من السرور في تكدير لامبالاته، حتى وإن لم يكن يراودني أدنى توهُّم حول الارتياح العميق الذي أحدثه لديه قراري بالإجهاض.

بعد مرور أسبوع، اغتيل كينيدي في دالاس. لكن هذا الخبر لم يكن شيئاً ذا بال قد يثير اهتمامي.

وها هي الأشهر التي تلت ذلك تغرق في نورٍ برزخِيٍّ. وها أنا أتخيَّلني في الشَّوارع أسير على غير هدى. كلَّما تذكَّرت هذه الفترة، خطرت ببالي عبارات أدبية مثل: «عبور المظاهر»، «ما وراء الخير والشر»، أو أيضاً «الرحلة في أقاصي الليل». ظل هذا الأمر يبدو أشبه بما عشته واختبرته وقتها، بشيء ما فائق الوصف وعلى قدر من الجمال.

منذ عدَّة سنوات وأنا أدور حول حدثِ حياتي هذا. عندما أقرأ في رواية ما عن قصَّة إجهاض، أغرق في رعشة خالية من الصُّور والأفكار، كما لو أن الكلمات تتحول فوراً إلى إحساس عنيف. على النحو ذاته، يبلبلني الاستماع مصادفة لأغنية لاجافاناز *(الجاوِيَّة)*[١] *وذاكرتي المترددة*[٢]، أو أيِّ أغنية أخرى رافقتني خلال تلك الفترة.

---

(١) أغنية للمغني الفرنسي سيرج غينسبورغ.

(٢) أغنية لجان مورو.

بدأت كتابة هذه القصَّة منذ أسبوع من دون أيٍّ يقين بمتابعتها. كنت أريد فقط أن أتأكَّد من رغبتي في الكتابة عن هذا الحدث. هي رغبة ظلَّت تجتاحني باستمرار كلما انكببت على تأليف الكتاب الذي أشتغل عليه منذ سنتين. ظللتُ أقاوم دون أن أقوى على منع نفسي من التفكير فيه. كان الاستسلامُ لهذا الشُّعور يبدو لي مفزعاً. لكنني كنت أقول في قرارة نفسي أيضاً إنَّني قد أموت دون أن أكون قد فعلت شيئاً بهذا الحدث. إذا كان ثمة خطأ ما، فهو ذاك. ذات ليلة، حلمت أنني أمسك بين يديَّ كتاباً ألَّفته حول إجهاضي، إلَّا أنه يصعب العثور عليه في أي مكتبة، ولا ترد له أي إشارة في أيٍّ دليل. كُتبِ بأحرف بارزة، أسفل الغلاف، كلمة: مرهَق. كنت أجهل ما إذا كان هذا الحلم يعني أنَّه يجب أن أكتب هذا الكتاب أم أنه لا جدوى من فعل ذلك.

كان الزمن، مع هذه القصَّة، هو الذي بدأ يمضي ويجرفني معه رغماً عني. صرت أعرف الآن أنني عازمة على الذهاب حتى النهاية مهما حصل، بالطريقة ذاتها التي نهجتُها وأنا في سنِّ الثالثة والعشرين عندما مزَّقتُ شهادة الحمل.

أريد أن أغوص، مرَّة أخرى، في تلك الفترة من حياتي

ومعرفة ما وجد فيها. سيدخل هذا الاستكشاف في حبكة قصَّة ما، هي وحدها القادرة على أن تستعيد حدثاً لم يكن إلا زمناً داخل ذاتي وخارجها. ستحمل إليّ مفكِّرةٌ ومذكَّرات يومية احتفظتُ بهما كل هذه الأشهر المعالم والأدلَّة الضروريَّة لتأسيس الأحداث. سأبذل ما استطعتُ من جهد لأغوص في كل صورة حتى يولد في داخلي شعور مادي يدفعني «للَّحاق» بها، وتنبثق بضع كلمات بإمكاني أن أقول عنها: «إنها هي بعينها». أن أسمع مجدداً كل واحدة من هذه الجمل الثابتة فيَّ، الجمل التي يجب أن يصير معناها حينها مُبهماً للغاية، أو على العكس مطمئناً جداً إلى درجة أن تفكيري فيها اليوم يغمرني بشعور مزدوج بالاشمئزاز أو بالعذوبة.

أن يكون الشكل الذي به عشتُ تجربة الإجهاض تلك- السريَّة- على علاقة بقصَّة منتهية لا يبدو لي دافعاً مشروعاً لتركها مخفيَّة- حتى وإن كانت مفارقة قانون عادل تكاد تتمثَّل دوماً تقريباً في إجبار الضَّحايا القدامى على الصَّمت بدعوى أن «كلَّ هذا قد انتهى»، رغم أنَّ الصَّمت السابق نفسه يستعيد ما حدث. إذ لا وجود لأي مانع يعطِّل الإجهاض الذي أقدر على إتيانه، مع استبعاد المعنى العام والعبارات المبسَّطة على نحو ضروري، تلك التي فرضها

صراع السَّبعينيات مثل: «العنف ضد المرأة». إلخ. ومُواجَهة هذا الحدث الذي لا يُنسى في واقعه.

نصٌّ قانوني: يُعاقبُ بالسّجن وبغرامة ماليَّة ١) الفاعل في عمليات الإجهاض مهما كان نوعها؛ ٢) الأطباء والقابلات والصيادلة وكل من دلَّ على هذا الفعل أو ساعد على إتيانه؛ ٣) المرأة التي أجهضت نفسها أو وافقت على ذلك؛ ٤) التَّحريض على الإجهاض والدِّعاية لكل موانع الحمل. يمكن لتحجير الإقامة بالإضافة إلى ذلك، أن يدان به المتَّهمون من دون اعتبار المنع النهائي أو الوقتي لمزاولة المهنة بالنسبة إلى المتَّهمين من الدَّرجة الثانية.

الموسوعة العالمية الجديدة لاروس. منشورات ١٩٤٨.

لم يعد الزَّمن متوالية فاترة من الأيام التي يجب أن تُملأ بالدُّروس والعروض، والتوقفات بالمقاهي والمكتبة الموصلة إلى الامتحانات وعطلة الصيف، وإلى المستقبل. بل صار شيئاً عديم الشكل كان يتقدَّم في أعماقي، شيئاً وجب تدميره بأي ثمن كان.

كنت أحضر دروس الأدب وعلم الاجتماع، وأرتاد مطعم «أو»، وأحتسي فناجين قهوة عند الظهيرة ومساء في ‹لا فالوش›، حانة الطَّلبة. لم أعد أنتمي إلى العالم نفسه. كانت هناك الفتيات الأخريات ببطونهنَّ الخاوية وأنا.

حتى أتخيَّل وضعي، لم أستعمل أيَّ عبارة من العبارات التي تصف حالتي، مثل «أنا أنتظر طفلاً»، أو «حامل»، وبصفة أقلَّ كلمة «حمل»[1] القريبة من كلمة «شاذ». كلها

---

(١) في الفرنسية كلمة grossesse وتعني حمل قريبة في نطقها من كلمة grotesque التي تعني شاذ.

عبارات تحمل في طيَّاتها معنى يحيل على مستقبل لم يكن ينبغي أن يوجد. لم يكن هناك أيُّ داع لأن أسمِّي ما كنت قررت إخفاءه. كتبت في المفكرة: «هذا»، «هذا الشيء»، ثم كتبت مرَّة واحدة فقط كلمة: «حامل».

انتقلتُ من الشُّعور بالشك في أن هذا الأمر يحدث لي أنا إلى اليقين بأنه يجب أن يحدث لي بالضَّرورة. كان ذلك ينتظرني منذ الوهلة الأولى التي استمتعت فيها تحت غطائي، في الرَّابعة عشرة من عمري، دون أن أتمكن، بعد ذلك- رغم الابتهالات للعذراء ولقدِّيسات أخريات- من أن أمنع نفسي من معاودة التَّجربة، حالمة بدأب بأنني عاهرة. بل كان من العجيب ألَّا أشهد هذه التجربة في وقت مبكر. فإلى حدود الصيف الماضي، نجحت بعد أن بذلت جهوداً كبيرة وتكبدت إهانات- كأن أعامَل على أنني عاهرة ومثيرة- في الامتناع نهائياً عن ممارسة الحب. في النهاية، لست مدينة في خَلاصي إلا لعنف رغبة، كانت في اتِّخاذها شكل المداعبة على نحو سيّئ، قد دفعتني إلى خشية كل شيء حتى قبلة بريئة.

أقمت على نحو ملتبس رابطاً بين طبقتي الاجتماعية الأصلية وما يحدث لي. فأنا أوَّل من أنجز دراساتٍ عليا في عائلة تتكون من العمَّال والتجَّار الصغار، حيث نجوت من قبضة المصنع وعرض السلع للبيع. ولكن لا شهادة

البكالوريا ولا الإجازة في الآداب نجحتا في أن تصرفا عني لعنة فقر كانت تعاملُ الفتاة الحامل، مثل مدمنة كحول تماماً. لقد أُخِذتُ على حين غرة، وما كان ينمو داخلي، بطريقة ما، لم يكن سوى تعبير عن الفشل الاجتماعي.

لم يكن ينتابُني أيُّ شعور بالخوف من فكرة الإجهاض. كان يبدو لي، إن لم يكن سهلاً، ممكناً على الأقل، لا يتطلَّب شجاعة خاصَّة. كان يبدو لي اختباراً عادياً. يكفي تتبُّع الدَّرب الذي يضمُّ صفّاً طويلاً لنساء سبقنَني. كنت قد راكمت، منذ سنِّ المراهقة، حكايات قرأتها في روايات، أو نقلَتها شائعات الحي في الأحاديث الهامسة. واكتسبتُ معرفة مبهمة حول الوسائل المستعملة كإبرة الخياطة، وساق البقدنوس، حُقن الصابون السائل، وركوب الخيل- لكن الحلَّ الأفضل هو البحث عن طبيب يقال عنه: «غير شريف» أو امرأة ذات اسم جميل تُدعى «صانعة الملائكة». كلاهما باهظ الثمن، غير أنَّني لم أكن أملك أدنى فكرة عن الأسعار. في السَّنة الماضية حدَّثتني شابة مطلَّقة عن طبيب من ستراسبورغ خلَّصها من طفل، دون أن تخبرني بالتفاصيل. اكتفت بالقول: «كنت أشعر بألم اضطررت من شدَّته للتشبُّث بحوض الغسل». أنا

أيضاً مستعدَّة للتشبُّث بحوض الغسل. لم أكن أظن أنني قد أموت.

بعد ثلاثة أيام من تمزيق شهادة الحمل، التقيت في ساحة الكلية بجان ت، وهو طالبٌ متزوِّج وموظَّف كنت قد حملت إليه قبل سنتين درساً مزدوجاً حول فيكتور هوغو تعذَّر عليه حضوره. كان حديثه المندفع وأفكاره الثَّورية تناسبني تماماً. ذهبنا لنشرب كأساً في ساحة المحطة، في الميتروبول. وفي لحظة ما، أخبرته بأسلوب مُراوغ أنني حامل، لأنني كنت أعتقد، بلا شك، أنه قادر على مساعدتي. كنت أعلم أنه عضو في جمعيَّة شبه سرِّية تدافع عن حرية منع الحمل والتنظيم العائلي، وكنت أتصور ربما نجدة ما ستأتي من هذه الجهة.

اعتلته على الفور مسحة فضول، واعتراه شعور بالمتعة، كأنه كان يراني منفرجة السَّاقين أمامه، أهدي إليه فرجي. لعلَّه كان مستمتعاً أيضاً بالتغير المفاجئ لطالبة الأمس الطيبة إلى فتاة يائسة. كان يريد أن يعرف ممَّن أنا حامل، ومنذ متى حدث ذلك. إنه أوَّل شخص أحدِّثه عن وضعي، حتى وإن لم يكن يملك في تلك اللحظة حلّاً يقدِّمه إليَّ. كان فضوله حماية لي. عرض عليَّ الذهاب للعشاء في منزله الكائن

بضواحي رُوان. لم أكن أرغب في البقاء وحيدة في غرفتي بالحيِّ الجامعي.

عندما وصلنا، كانت زوجته تُطعم طفلهما الجالس على كرسيٍّ عال. أخبرها جان ت باختصار أنني أعاني هموماً. في الأثناء وصل صديق لهما. بعد أن أنامت الطفل، قدَّمت لنا لحم أرنب مع السَّبانخ. كان اللون الأخضر تحت شرائح لحم الأرنب يشعرني بالغثيان. خمَّنتُ أنني سأصبح في السنة المقبلة شبيهة بزوجة جان إذا لم أجهض نفسي. بعد العشاء، ذهبت الزَّوجة مع الصديق لشراء بعض أدوات المدرسة التي تعمل بها مدرِّسة، فيما شرعتُ في غسل الأواني بمساعدة جان ت. أخذني بين ذراعيه هامساً لي بأن لدينا الوقت لنمارس الحب. فخلَّصتُ نفسي منه وواصلت غسل الصُّحون. كان الطفل يبكي في الغرفة المجاورة. انتابتني رغبة في التقيؤ بينما كان «جان تـ.» يلمس مؤخرتي، وهو يمسح الصحون. فجأة، استعاد نبرته المعتادة، حيث ادَّعى أنه كان يريد أن يقيس قوَّتي المعنوية. عندما عادت زوجته، اقترحا عليَّ قضاء اللَّيلة في منزلهما. كان الوقت متأخِّراً، ولا أحد منهما بادر إلى مرافقتي. نمت في قاعة الجلوس على مرتبة هوائيَّة. وفي صباح اليوم التالي، عدت

إلى غرفتي في الحيِّ الجامعي. غرفتي التي غادرتها البارحة في بداية الظهيرة، وجدتها كما هي مع لوازم الدِّراسة، والسَّرير مرتَّب وكل شيء أيضاً على حاله. يوم بأكمله كان قد انقضى تقريباً. ومثل هذه التَّفاصيل هي التي تكون مقياساً لبداية الفوضى في حياتنا.

لم أحبَّ أن يعاملني جان ت باحتقار. فقد تحوَّلتُ، في نظره، من الانتماء إلى فئة الفتيات اللواتي نجهل ما إذا كنَّ سيقبلن بممارسة الحب إلى فئة اللواتي قمن بممارسة الجنس على نحو لا ريب فيه. في زمن أصبحت فيه التَّفرقة بين الفئتين مهمَّة للغاية، حيث كانت تحدِّد موقف الذكور من هؤلاء الفتيات، كان جان يبدو براغماتياً وواثقاً أيضاً بأنني لن أحمل منه بما أنني حامل أصلاً. كانت هذه الحادثة مزعجة ولكنها على أية حال تافهة أمام حالتي. وعدني بالبحث عن عنوان طبيب وأنا لا أملك أحداً غيره.

التقيت به بعد يومين في مكتبه، حيث دعاني لتناول الطَّعام في حانة على الأرصفة قرب محطَّة النَّقل، في حيٍّ خرَّبته الحرب وأعيد بناؤه بالخرسانة، لم أعد أذهب إليه قط. بدأت في التسكع والخروج من الفضاء والأماكن التي اعتدتُ الذهاب إليها وارتيادها في نفس الساعات برفقة الطَّلبة

الآخرين. طلب شطائر ولم يكن لسحره حدٌّ. أخبرني وهو يضحك أن بإمكانه أن يضع لي مسباراً بمساعدة أصدقاء. لم أكن واثقة أنه يمزح. حدثني بعد ذلك عن الزوجين ب. تعرَّضت الزوجة لإجهاض قبل سنتين أو ثلاث. «بل كادت تموت». لم يكن يملك عنوان الزوجين ب، ولكن بإمكاني الاتصال بـ«لـ. ب» في الصَّحيفة التي تعمل بها كمراسلة. كنت أعرفها معرفة سطحيَّة لأنني حضرت معها درساً في الفيلولوجيا. إنها فتاة قصيرة وسمراء، تضع نظَّارات كبيرة، وذات ملامح حادَّة. أثنى عليها أستاذ ثناء عظيماً بعدما قدَّمت بحثاً. فأن تكون فتاة مثلها قد أجضهت كان يهدِّئ من روعي.

بعد أن أنهى تناول شطائره، تمدَّد جان ت على مقعده وهو يبتسم ابتسامة عريضة قائلاً: «من الجيد أن نأكل». شعرت بالحزن يعتصر قلبي وأحسست بالوحدة. بدأت أدرك أنه لم يكن يرغب في أن يتورَّط أكثر في هذه المسألة. فالفتيات الراغبات في الإجهاض لا يدخلن في الإطار المعنوي الذي يحدده التنظيم العائلي الذي كان ينتمي إليه. ما كان يبغيه هو الجلوس في الصفِّ الأول ومتابعة بقيَّة حكايتي، كأن الأمر أشبه بمشاهدة كل شيء مجاناً. أخبرني أنه لا يستطيع من الناحية الأخلاقية، بصفته عضواً في جمعية تدافع عن حرية الأمومة، أن يقرضني مالاً

لأجهض سرّاً. (كتبت في المفكرة: «مع تناول الطعام مع ت على الأرصفة، تتراكم المشاكل».)

بدأت عمليَّة البحث. يجب أن أعثر على لـ.ب. كان زوجُها الذي طالما رأيته في المطعم يوزِّع منشورات يبدو لي أنه لن يعود إليه أبداً. كنت أجوب القاعات ظهراً ومساء، وأتوقَّف أمام الباب في ردهة المدخل.

انتظرت لـ.ب لليلتين متتاليتين أمام مطعم *باري-نورماندي*. لم أجرؤ على الدخول والسؤال ما إذا كانت قد وصلت. شعرت بالخوف من أن يشكُّوا في سلوكي، وحتى من إزعاج لـ.ب في مكان عملها بسبب مسألة كادت تموت جرَّاءها. كان الجو ماطراً خلال المساء الثاني، حيث وقفتُ بمفردي في الشارع تحت مطريَّتي، أقرأ على نحو آليٍّ أوراق الصَّحيفة المعلَّقة على لوحة الإعلانات المسيَّجة على الجدار، وأنظر بالتَّعاقب إلى طرفَي شارع المستشفى. كانت لـ.ب في مكانٍ ما برُوان. إنها المرأة الوحيدة القادرة على إنقاذي. مع ذلك لم تأتِ. فور عودتي إلى الحي الجامعي، كتبت في مفكرتي: «ما زلت بانتظار لـ.ب تحت المطر، وهي غائبة. يئست. يجب عليَّ التخلُّص من هذا الشيء».

لم أكن أملك أيَّ دليل، ولا أثر.

إذا كانت روايات كثيرة تتحدَّث عن الإجهاض، فإنها لم تكن تُقدِّم بعض التفاصيل حول الطريقة التي جرى بها ذلك تحديداً. فبين اللَّحظة التي تكتشف فيها الفتاة أنها حامل واللَّحظة التي لم تكن فيها كذلك، ينقص شيء ما. بحثت في المكتبة عن الملف المتعلِّق بكلمة «إجهاض». لكن المراجع التي وجدتها لم تكن تخصُّ إلا المجلَّات الطبية. أخرجت مرجعين هما: *السجلَّات الطبية- الجراحية* و*مجلَّة علم المناعة*. كنت آمل أن أعثر على معلومات عمليَّة، لكن المقالات لم تكن تتحدث إلا عن تبِعات «الإجهاض الإجرامي». وهذه لا تعنيني.

(تبرز هذه الأسماء وهذه الإشارات *Per m 484 n⁰⁹ ⁵ et 6 Norm 1065* على صفحة دفتر عناويني في تلك الفترة. أنظر إلى هذه الآثار المخربشة بقلم حبر أزرق، فينتابني شعور بالغرابة والافتنان، كأن هذه الدَّلائل المادية كانت تحفظ على نحو مبهم ودائم، واقعاً، لن تمكنني الذاكرة، ولا الكتابة، بفعل تقلُّبهما، من بلوغه).

غادرت الحيَّ الجامعي، ذات ظهيرة، بنيَّة البحث عن طبيب يقبل بإجهاضي. لا بد أن هذا الكائن موجود

في مكانٍ ما. كانت رُوان قد أصبحت غابة من الصخور الرمادية، وكنت أتحرى اللَّوحات المعدنية المُذهَّبة، متسائلة عمَّن سأجده خلفها. لم أقرِّر رنَّ جرس الباب، بل كنت أنتظر إشارة ما.

توجَّهت إلى حي مارتانفيل، متخيِّلة أن الأطباء، في هذا الحي الفقير الشبيه بمنطقة سكنيَّة، هم أكثر تفهُّماً.

كانت شمس نوفمبر شاحبة. سرتُ تحتها وفي رأسي تتردَّد لازمة أغنية كنا نستمع إليها باستمرار. *دومينيك نيك نيك*. تغنيها راهبة من الدومينيك تدعى الأخت ابتسامة، يرافقها عازف على القيثارة. كانت الكلمات مُهذَّبة وساذجة- لم تكن الأخت ابتسامة تعرف معنى كلمة «*ناك*»- لكن الموسيقى المرحة والراقصة كانت تمنحني الشجاعة في البحث عن ضالَّتي. وصلت إلى ساحة سانت-مارك. كانت البضائع معروضة على طاولات في السوق. ورأيتُ في أقصى الشارع متجر الأثاث ‹فْروجيه› الذي زرته وأنا طفلة صغيرة رفقة أمي قصد شراء خزانة. لم أعد أنظر إلى اللوحات المعدنية، كنت شاردة بلا هدف.

(علمت بانتحار *الأخت ابتسامة* في صحيفة *لوموند* منذ عشر سنوات تقريباً. روت الصَّحيفة أنه بعد النجاح السَّاحق لأغنية *دومينيك*، تعرَّضت لكلِّ أنواع مضايقات

مؤسَّستها الدينيَّة، فانفصلت عنها وبدأت تعاشر امرأة. شيئاً فشيئاً، توقَّفت عن الغناء، فطواها النسيان وأصبحت تعاقر الخمر. هزَّ هذا الخبر المختصر كياني. بدا لي أنها المرأة التي رسمت قطيعة مع المجتمع، أو المُرتدَّة، أو السّحاقيَّة ومدمنة الكحول، لا أقل ولا أكثر، المرأة التي لم تعتقد يوما أنها ستكونها، المرأة التي رافقتني في شوارع مارتانفيل عندما كنت وحيدة وضائعة. كان يجمع بيننا إهمال متفاوت في الزمن. خلال تلك الظَّهيرة، أصبحتُ مدينة بشجاعتي في الحياة لأغنية امرأة ستضيِّع نفسها لاحقاً حدَّ الموت. تمنيت بشدة أنها كانت سعيدة رغم كل شيء وأنها فكَّرت، بعد أن فهمت الآن معنى الكلمة بفضل سهرات الويسكي، في أنها ناكت جميع الأخوات الطيبات في آخر المطاف.

كانت الأخت ابتسامة تنتمي إلى فئة النساء اللواتي لن تلتقي بهنَّ أبداً، وهنَّ على قيد الحياة أو وهنَّ في عداد الموتى، واقعيات كنَّ أم لا، النساء اللواتي وأنا معهن ورغم كل ما يفرِّقنا، أُحسُّ أن هناك شيئاً مشتركاً بيننا. فهنّ يشكِّلن داخلي سلسة لامرئيَّة تتجاور فيها فنانات وكاتبات وبطلات روايات ونساء من طفولتي أشعر أن حكايتي كامنة بداخلهن.)

كانت عيادة الطَّبيب العام الواقعة في شارع إيزار، القريب من ساحة بوفوازين، مثل أغلب عيادات الأطبَّاء في السِّتينيات، شبيهة بصالون بورجوازي، بسجَّادات، ومكتبة ذات واجهة بلَّورية ومكتب راق. من المستحيل معرفة السبب وراء لجوئي إلى هذا الحي الجميل حيث يسكن نائب كتلة اليمين أندريه ماري. كان الليل قد أرخى سدوله. لعلَّني لم أرغب في العودة إلى غرفتي دون أن آتي أي محاولة. استقبلني طبيب متقدم في السن. أخبرته أنني مرهقة وأنَّ عادتي الشَّهرية انقطعت عني. أكَّد أنني حامل، بعد أن فحصني بإصبع مطَّاطي. لم أجرؤ على أن أطلب منه إجهاضي. رجوته فقط أن يعيد إليَّ عادتي الشهرية بأي ثمن. لم يجبني، ثم استرسل، دون أن ينظر إليّ، في خطبة معتادة تنتقد الرِّجال الذين يهجرون الفتيات بعد أن يقضوا شهوتهم. ووصف لي محلول كالسيوم وحُقن أوستراديول. هدأ أخيراً بعد أن علم أنني طالبة وسألني ما إذا كنت أعرف فيليب د، ابن أحد أصدقائه. كنت أعرفه فعلاً، وهو شاب أسمر يضع نظارات، كاثوليكي مُتزمِّت. كان زميلاً لي في درس اللُّغة اللاتينية خلال السنة الجامعية الأولى، لكنه رحل إلى كاين. أتذكر أنني فكَّرتُ فيما مضى أن هذا الشاب ليس من النَّوع الذي يمكن أن أحمل منه. «إنه ولد لطيف جداً. أليس كذلك»؟ ابتسم الطبيب وبدا سعيداً لاستحساني

إياه ونسي لماذا أتيت إليه. بدا عليه الارتياح عندما رافقني إلى الباب ولم يطلب مني أن أعود.

كانت الفتيات مثلي يفسدن يوم الأطباء. فتيات مفلسات لا يملكن معارف- وإلا لما أتين ليجهضن عندهم على نحو أعمى- كُنَّ يجبرنهم على تذكُّر القانون الذي يمكن أن يزجَّ بهم في السِّجن ويحرمهم من مزاولة مهنتهم إلى الأبد. لم يكونوا يتجرأون على قول الحقيقة، إلى درجة أنهم لا يخاطرون بخسارة كل شيء من أجل عيني آنسة صارت حبلى لشدَّة سذاجتها، إلا إذا فضَّلوا بصدق الموت بدلاً من نقض قانون يتسبب في قتل النساء. ولكن على الجميع أن يعوا أنه حتى لو منعوهن من الإجهاض، سيجدن وسيلة لذلك حتماً. غير أنَّ إدخال إبرة خياطة في المهبل لا يساوي الشيء الكثير أمام مهنة محطَّمة.

كان عليَّ أن أبذل جهداً لأهرب من شمس الشتاء في ساحة سانت مارك برُوان والتخلص من أغنية الأخت ابتسامة، بل ومن العيادة السريَّة للطبيب الذي نسيت اسمه، العيادة التي تقع في شارع إيزار، وللإفلات من مأزق

الصُّور، وأدرك هذه الحقيقة اللَّامرئيَّة والغامضة والخالية من الذكرى، الحقيقة التي كانت تلقي بي رغم ذلك في الشارع بحثاً عن طبيب وهمي: القانون.

كانت في كل مكان: في أساليب التَّورية والتَّلطيف التي أخطُّها في مفكِّرتي، في عيني جان تـ. البارزتين، في الزِّيجات التي يقال عنها إنها حدثت بالإكراه، في مظلات شيربورغ[1]، في خجل النساء المُجهضات، في استنكار الآخرين لهذا الفعل، وفي الاستحالة المطلقة لتخيل أن بإمكان النساء أن يقرِّرن في يوم ما الإجهاض بحرية. ومثلما جرت العادة، من المستحيل تحديد ما إذا كان الإجهاض ممنوعاً لأنه شرٌّ، أو ما إذا كان شراً لأنه ممنوع. نحن نحكم على شيء من وجهة نظر القانون، ولا نحكم على القانون ذاته.

لم أكن أعتقد أن حُقن الطَّبيب سيكون لها تأثير، لكنَّني كنت أرغب في أن أجرِّب كلَّ شيء. وخشية أن تراود ممرِّضة المركز الإقليمي للأعمال الجامعية والمدرسيَّة شكوك ما، سألت طالبة في كلية الطب غالباً ما ألتقي بها في المطعم عما إذا كان بإمكانها أن تحقنني بها. لكنَّها أرسلت

(١) فيلم فرنسي لجاك ديمي.

لي طالبة أخرى مساء إلى غرفتي، وهي فتاة شقراء في غاية الجمال والهدوء. عندما رأيتها، قدَّرتُ أنني كنت بصدد التحوُّل إلى فتاة مسكينة. حقنتني دون أن تطرح عليَّ سؤالاً واحداً. في اليوم التالي، وبما أنه تعذَّر عليَّ العثور على أيٍّ منهما، جلستُ على السَّرير وغرزت بنفسي الإبرة في فخذي بعد أن أغمضت عيني. (كتبت في المفكِّرة: حقنتان ولا تأثير لهما.») علمت لاحقاً أن طبيب شارع إيزار قد وصف لي دواء يستعمل لمنع الإجهاض.

(أشعر أن الحكاية تجذبني وتفرض عليَّ، من دون وعي منِّي، معنى ما، هو معنى الشقاء في سيره الحتمي. أجبر نفسي على مقاومة رغبة تكوير الأيام والأسابيع، عازمة بكل الوسائل على حفظ البطء اللانهائي لزمن كان يتجمد مثل زمن الأحلام- كالبحث عن التفاصيل وكتابتها، واستعمال الزمن غير المكتمل وتحليل الأحداث.)

واصلتُ حضور الدُّروس وارتياد المكتبة. وكنتُ قد اخترت بحماس، خلال الصَّيف، موضوعاً لرسالة التخرج حول المرأة في التَّيار السوريالي. لكنه لم يعد يهمني الآن سوى الرَّبط في اللغة الفرنسية القديمة أو الاستعارات في مؤلَّفات شاتوبريان. كنت أقرأ بلامبالاة نصوص

إيلوار وبروتون وأراغون، تلك التي كانت تحتفي بالنساء المُجرَّدات الوسيطات بين الإنسان والكون. كنت أكتب هنا وهناك جملة تتعلَّق بموضوع رسالتي. لكنني أجهل ما ينبغي عليَّ أن أفعله بالملاحظات التي دوَّنتها، وأشعر أنني عاجزة على أن أعيد إلى الأستاذ المؤطِّر التَّخطيط والفصل الأول اللذين طلبهما مني. وكان الربط بين معلومات وإدماجها في نصٍّ متجانس فوق طاقتي.

كنت منذ دراستي الثانوية أحسن اللَّعب بالمفاهيم. ولم تكن السِّمة المصطنعة للبحوث وأعمال جامعيَّة أخرى تنفلت مني، لكنني أشعر ببعض الفخر في إظهار مهارة في القيام بها. كان يبدو لي أنه الثمن الذي عليَّ دفعه «لأكون في الكتب»، كما كان يقول والداي، وأخصِّص لها مستقبلي.

صارت الآن «سماء أفكاري» صعبة المنال. كنت أطوف فوقها بجسدي الواقع في الغثيان، أرجو تارة أن أصبح قادرة على التَّفكير من جديد بعد أن أكون قد تخلَّصت من مشكلتي، وتارة أخرى يبدو لي أن التحصيل الفكري بات في أعماقي بناء مصطنعاً انهار نهائياً. غدا عجزي عن تحرير بحثي، بطريقة ما، أمراً مفزعاً أكثر من حاجتي إلى الإجهاض، لأنه كان الرمز الحتمي لسقوطي اللَّامرئي. (كتبت في مفكَّرتي: «لم أعد أكتب، لم أعد أعمل، كيف

السَّبيل إلى الخروج من هذا المأزق؟») كفَفت عن أن أكون «مثقَّفة» ولا أعرف ما إذا كان هذا الشعور ذائعاً لكنه يسبب ألماً لا يوصف.

(لطالما انتابني أيضاً هذا الشعور في ألَّا أذهب إلى أبعد الحدود في استكشاف الأشياء، كأن شيئاً ما قديماً جداً كان يشدُّني إليه، شيئاً ما على علاقة بعالم العمَّال اليدويين الذي انحدرت منه، العالم الذي كان يخشى «العمل الذهني المضني» أو ذاك الذي على علاقة بجسدي، بهذه الذكرى في جسدي.)

عندما أستيقظ كلَّ صباح، كنت أعتقد أنَّ الغثيان قد اختفى. ولكن في ذات اللَّحظة التي تخالجني فيها هذه الفكرة، كنت أشعر به يتدفَّق في مدٍّ وجزر مخاتلين. لم تفارقني الرغبة في الأكل والاشمئزاز منه. ذات يوم، وأنا أمُرُّ أمام محلٍّ لبيع اللُّحوم الجاهزة، لمحت نقانق مطبوخة، فدخلت لشراء إحداها سُرعان ما التهمتها على الرَّصيف. ومرَّة أخرى، رجوت شابّاً أن يشتري لي عصير عنب كنت أشتهيه بشدَّة إلى درجة أنه بدا لي أنني مستعدَّة للقيام بأيِّ شيء في سبيل الحصول عليه. لكن بعض الأطعمة كانت تثير اشمئزازي فور حصولي عليها، بينما كانت أخرى،

تبدو رائعة عندما أراها، تتحلَّل في فمي كاشفة عن تعفُّنها المنتظر.

ذات صباح، عندما كنت أنتظر رفقة طلبة آخرين انتهاء مُحاضرة لندخل إلى إحدى القاعات، تفكَّكت الخيالات فجأة في شكل نقاط لامعة في عينيَّ ولم أجد إلا الوقت الكافي للجلوس على درجات السلم.

كتبت في المفكِّرة: «توعُّكات دائمة»- «في الساعة ١١ شعور بالاشمئزاز في المكتبة الجهوية»- «ما أزال مريضة».

خلال سنتي الأولى بالكليَّة، جعلني بعض الشبان أحلم، من دون وعي منهم. كنت أطاردهم وأنا جالسة غير بعيدة عنهم في المدرج، أستدلُّ على الساعة التي يأتون فيها إلى المطعم أو المكتبة. كانت هذه العواطف الخيالية تبدو لي أنها تنتمي لزمن بعيد، خال من الرصانة، زمن طفلة صغيرة تقريباً.

ظهرتُ على صورةٍ تعود لشهر سبتمبر الماضي جالسةً وشعري مفرودٌ على كتفيَّ وبشرتي مسمرَّة للغاية. أضع منديلاً معقوداً في تقوير قميص مخطَّط، مبتسمة *وثائرة*. كلَّما تأمَّلت هذه الصُّورة، فكَّرتُ أنها آخر صورة لي وأنا

شابة تتطور في نظام الإغواء اللامرئي والحاضر على الدَّوام.

خلال سهرة في (لا فالوش) ذهبت إليها رفقة بنات من الحي الجامعي، شعرت أنني أشتهي الشاب الأشقر واللَّطيف الذي ظللت أراقصه منذ بداية السَّهرة. كانت تلك المرَّة الأولى التي يحدث فيها معي ذلك قبل أن أكتشف أنني حامل. لا شيء إذاً يمكن أن يمنع عضواً من أن ينتصب وينفتح، حتى وإن كان يوجد داخل البطن جنين سيتقبَّل دون أن يتحرَّك دفقة من منيٍّ مجهول. كتبت في المفكِّرة: «راقصت شاباً رومنسيّاً ولكنني عجزتُ عن فعل أي شيء».

كانت كلُّ الأحاديث تبدو لي صبيانيَّة وتافهة. وبدت لي عادة بعض الفتيات في أن يروين حياتهنَّ اليومية بكل تفاصيلها شيئاً لا يُحتمل. ذات صباح، وأنا في المكتبة، جلست إلى جانبي فتاة تنحدر من مدينة مونبيلييه سبق أن حضرنا معاً درساً في الفيلولوجيا. وصفت لي بدقَّة لامتناهية شقَّتها الجديدة الواقعة في شارع سانت-مور: صاحبة الشقَّة، الثياب التي تجفُّ في المدخل وعملها كأستاذة تقدِّم درساً خاصاً في شارع بوفوازين. إلخ. بدا لي وصفها الدقيق والمبتهج بعالمها مجنوناً وفاحشاً. وأعتقد أنني حفظت كل الأشياء التي ذكرتها هذه الفتاة في ذلك

اليوم بنبرتها المتوسطية- طبعاً بسبب تفاهة هذه الأشياء التي كانت بالنسبة إليَّ ذات معنى مرعب، معنى إقصائي من العالم العادي.

(مذ بدأت الكتابة عن هذا الحدث وأنا أحاول استعادة أكبر عددٍ ممكن من وجوه الطَّلبة وأسمائهم في المحيط الذي كنت أعيش فيه، حيث لم أرَ أحداً منهم أبداً، باستثناء طالب أو اثنين، منذ غادرت رُوان في السَّنة التالية. بعد أن خرجوا واحداً تلو الآخر من النِّسيان، عادوا واستوطنوا بعفويَّة الأماكن التي كنت ألتقي بهم فيها عادة، ككلية الآداب، مطعم «أو»، حانة «لا فالوش»، المكتبة الجهويَّة، ورصيف المحطَّة الذي كانوا يتراصُّون فيه مساء الجمعة في انتظار القطار الذي سيقلّهم إلى عائلاتهم. ينبعث حشد من الفراغ يسحبني معه، وهو الذي يعيد إليَّ كياني ذا السنوات الثلاث والعشرين، أكثر من ذكرياتي الشخصية- ويجعلني أدرك مدى انغماري في الوسط الطلاَّبي. تفسِّر لي هذه الأسماء والوجوه اضطرابي. وصرتُ في أعماقي منحرفة، مقارنة معهم، ومع هذا العالم المرجعي.

منعت نفسي من تدوين هذه الأسماء هنا لأنها ليست شخصيات خيالية، بل كائنات حقيقيَّة. غير أنني لا أستطيع أن أصدِّق أنَّهم موجودون في مكان ما. بمعنى آخر، كنت

على حق من دون شك: فأسلوب عيشهم الآن- أجسادهم وأفكارهم وحساباتهم في البنك- لا علاقة له بأسلوب عيشهم في الستينيات، ذاك الذي أراه وأنا أكتب. عندما تتملَّكني الرَّغبة في البحث عن هذه الأسماء في دليل المينيتيل، أشعر بخطئي فوراً.)

في يوم السَّبت عدت إلى منزل والدَيَّ. لم يكن يعجبني إخفاء وضعي كامرأة حامل. إذ إن ذلك يفصلني عن علاقتي الطبيعية بهم منذ سنِّ المراهقة. كانت والدتي تنتمي لجيل ما قبل الحرب، جيل الخطيئة والعار الجنسي. كنت واثقة من أن معتقداتها مقدَّسة، وأنَّ قدرتي على مكابدتها لا تماثلها إلا قدرتها على إقناع نفسها بأنني أقاسمها إياها. كان والداي، مثل أغلب الآباء، يتصوَّران اكتشافهما، على نحو لا يشوبه الخطأ، ومنذ الوهلة الأولى، أقلَّ دليل على الانحراف. كان يكفي، لكي أطمئنهما، أن أزورهما بانتظام بوجه مبتسم وناعم، إضافة إلى جلب ثيابي المتَّسخة، وأن أحمل المؤونة.

ذات يوم اثنين، عدت من عندهما، أحمل إبرَتي حِياكة كنت اشتريتهما ذات صيف لأحيك لي سُترة لم تكتمل بعد.

إبرتان كبيرتان ذاتا لون أزرق كهربائي. لم يكن لديَّ أي حل آخر. لقد قرَّرت التصرُّف وحدي.

مساء البارحة، ذهبت لمشاهدة فيلم *كفاحي*، رفقة فتيات من الحيِّ الجامعي. كنت في غاية الاضطراب، حيث ظللت أفكر فيما سأفعله في اليوم التالي. كان الفيلم يحملني رغم كل شيء إلى حقيقة بعينها، مفادها أن الألم الذي سأكابده لم يكن يساوي شيئاً أمام الألم الذي يتعرَّض له الناس في مُعسكرات الإبادة. شجَّعني هذا الأمر وغمرني بالإصرار. كما كان إدراكي أيضاً بأنني أستعدُّ لفعل شيء فعلتْه قبلي أخريات يمنحني القوة.

في صباح اليوم التالي، استلقيتُ على سريري ووضعت إبرة الحياكة في مهبلي بحذر. أخذتُ أتحسَّس الموضع دون أن أعثر على عنق الرَّحم، عاجزة عن منع نفسي من التوقف حالما أشعر بالألم. أدركت أنني لن أنجح في ذلك وحدي. كنت يائسة من عجزي. لم أكن في مستوى هذا الأمر. «لا شيء. هل هذا مستحيل أم ماذا؟ أخذت أبكي وقد نفد صبري.»

(قد تثير حكاية كهذه شعوراً بالغضب أو بالنُّفور أو أن ترمى بالابتذال. أن نعيش شيئاً ما مهما كان يمنحنا

الحقَّ الأدنى في كتابته. بل لا وجود لحقيقة دنيا. وإن لم أذهب إلى أقصى علاقتي بهذه التَّجربة، فأنا أساهم بذلك في تعتيم واقع النساء وأصطفُّ إلى جانب هيمنة العالم الذكورية.)

بعد تجربتي الفاشلة، اتَّصلت بالدكتور ن وأخبرته بعدم رغبتي في «الاحتفاظ» بالجنين وبأنني أنزل إلى هوَّة سحيقة. لم يكن هذا صحيحاً، لكنني أردته أن يعلم أنني مستعدة لكل شيء من أجل الإجهاض. طلب مني زيارة عيادته على الفور. ظننت أنه سيفعل شيئاً ما من أجلي لكنَّه استقبلني في صمت بملامح حادَّة. أخبرني بعد الفحص أن كلَّ شيء على ما يرام. فبدأت أبكي، فيما ظلَّ هو منكبّاً على مكتبه، ورأسه منحن، وقد بدا عليه الاضطراب. اعتقدت أنه كان يصارع نفسه، وأنه ما يلبث أن يستسلم. رفع رأسه: «لا أريد أن أعرف إلى أين أنت ذاهبة. ولكنك ستتناولين البنسلين ثمانية أيام قبل وثمانية أيام بعد. سأحضِّر لك الوصفة».

عندما خرجت من العيادة، اتهمت نفسي بإفساد آخر فرصة لي. لم أحسن اللَّعب حتى النهاية. اللعبة التي كان يفرضها الاحتيال على القانون. ولم يرضخ الطبيب إلا

بإتباع طلبي بدموع وتوسُّلات من أجل تمثيلٍ أفضل لواقع اضطرابي إلى درجة أنه استسلم لرغبتي في الإجهاض. (هذا ما اعتقدته لوقت طويل. وقد أكون على خطأ. هو وحده من يستطيع قول ذلك.) على الأقل كان يريد أن ينقذني من الموت جرَّاء تسمُّم الدم.

لم ينطق كلانا كلمة إجهاض ولو لمرة واحدة. كان ذلك شيئاً لا حيِّز له في اللُّغة.

(في اللَّيلة الماضية، حلمت أنني كنت أعيش وضع سنة ١٩٦٣، وأنني بصدد البحث عن وسيلة للإجهاض. عندما استفقت، اعتقدت أن الحلم أشعرني مجدَّداً بالإرهاق والعجز اللذين كنت غارقة فيهما. بدا لي الكتاب الذي أنا بصدد تأليفه أشبه بمحاولة يائسة. كانت ذكرى تقنعني، كما في لحظات الرَّعشة الجنسيَّة أو نور برق يشعرنا أن «هذا هو الجوهر»، بأنني حصلتُ على الشيء الذي أنشد امتلاكه عبر الكلمات من دون جهد- جاعلة بذلك سعيي إلى الكتابة بلا جدوى.

ولكن الكتابة، في هذه اللَّحظة، بعد أن اختفى الشُّعور الذي غمرني، تحتاج إلى أهميَّة أشد قوَّة إلى درجة أنَّها تجد تبريرها في الحلم.)

في الجامعة افتقدت الفتاتين اللتين كنت أعتبرهما صديقتين لي. إحداهما ذهبت إلى العمل في مصحَّة الطلبة في سانت هيلار دي تروفال، أما الثانية فقد كانت تحضِّر شهادة في الطب النفسي المدرسي في باريس. كتبت إليهما وأبلغتهما بحملي وبرغبتي في الإجهاض. لم تعاتباني، لكن بدا عليهما الفزع. لم يكن خوف الآخرين هو ما أحتاج إليه، وهما لا تملكان شيئاً تفعلانه من أجلي.

كنت أعرف «أو» منذ سنتي الأولى في الجامعة. فهي تسكن بالطَّابق نفسه الذي تقع فيه غرفتي. غالباً ما نخرج معاً، لكن صداقتنا لم تكن قوية. في حلقات النَّميمة التي تميِّز العلاقات بين البنات دون أن تؤثر فيها أو تسمِّمها، كنت أنضمُّ إلى الآراء القائلة إنها فتاة مزعجة وسمجة. لطالما عرفتها متعطِّشة لمعرفة الأسرار التي تصير كنوزاً تهديها للآخرين وتجعلها مهمة لساعة واحدة أكثر منها سمجة. لكنها في النهاية تظل بورجوازية، كاثوليكية، تحترم تعاليم البابا بخصوص منع الحمل. من المفروض أن تكون آخر من أبوح إليه بسرّي. مع ذلك، ظلَّت هي كاتمة أسراري منذ شهر ديسمبر حتى النهاية. وها أنا أستنتج هذا الأمر: لم تكن الرَّغبة التي كانت تدفعني للحديث عن وضعيتي ترتكز على الأفكار، ولا على الآراء الممكنة لأولئك الذين أسرُّ

إليهم. في العجز الذي وجدتني فيه، طرأ موقف لم أكن أبالي بنتائجه، بل كنت أحاول عبره سحب المستمع نحو الرؤية الحائرة للواقع.

على هذا النحو، بالكاد كنت أعرف أندريه إكس، طالب الأدب الذي كان يدرس بالسَّنة الأولى، حيث كان اختصاصه يتمثل في أن يروي حكايات مفزعة مستمدة من *هارا كيري*، بنبرة باردة. أخبرته، خلال محادثة لنا في مقهى، أنني سأبذل كل شيء في سبيل أن أجهض هذا الحمل. ظلَّ جامداً في مكانه، يُحدِّق فيَّ بعينيه البنيَّتين. بعد ذلك، حاول إقناعي باتِّباع «القانون الطبيعي»، وألا أرتكب ما كان يعتبره جريمة. ظللنا جالسَين وقتاً طويلاً على طاولة الميتروبول، بالقرب من الباب المؤدي إلى الطَّريق. كان عاجزاً عن أن يتركني ويمضي. استشعرتُ خلف إصراره على دفعي للعدول عن مشروعي اضطراباً شديداً وافتتاناً فزِعاً. كانت رغبتي في الإجهاض توحي بشيء من الإغواء. في الحقيقة، كان إجهاضي بمثابة حكاية تبدو نهايتها مجهولة، في نظر (أو) و(أندريه) و(جان ت.).

(أتردد في كتابة: أرى *الميتروبول* ثانية، أرى الطاولة الصغيرة التي كنا جالسَين عليها، بالقرب من الباب المؤدي

إلى الطريق الأخضر، جِيلْ، نادل المقهى اللّامبالي الذي كنت أشبِّهه بشخصيَّة النادل في كتاب *الوجود والعدم*، ذاك الذي لم يكن نادل مقهى، بل رجلاً يؤدِّي دور نادل المقهى. إلخ. التذكر عبر الخيال أو التذكر عبر الذاكرة هو قدر الكتابة. ولكن عبارة «أنا أتذكر» تتمثَّل في تخليد هذه اللحظة التي ينتابني فيها شعور بانضمامي إلى الحياة الأخرى، الحياة الماضية والضائعة، وهو شعور كانت تترجمه عبارة: «كما لو أنني ما زلت هناك» على نحو بليغ جداً.)

الشَّخص الوحيد الذي لم يكن يبدو أنه مهتم بوضعي هو الرَّجل الذي حملت منه، ذاك الذي كان يرسل إليَّ من بوردو رسائل في فترات متباعدة، يلمِّح فيها إلى صعوبات إيجاد حل. (كتبت في المفكرة: «إنه يتركني أتدبَّر الأمر بنفسي») كان عليَّ أن أستنتج من ذلك أنه لم يعد يشعر تجاهي بأي شيء، ولم يعد يملك إلَّا رغبة واحدة فقط: أن يعود الشَّخص الذي كانه قبل هذه القصَّة؛ أي ذلك الطَّالب الذي لا تشغله إلا امتحاناته ومستقبله. ورغم أنني كنت مجبرة على أن أستشعر كل هذا، فقد كنت عاجزة عن القطع معه، خوفاً من أن أضيف إلى بحثي اليائس عن وسيلة للإجهاض فراغاً عاطفيّاً. كنت أخفي الواقع، في آخر

المطاف، *من دون دراية مني*. وإذ كانت نفسيتي تتحطم لأنني أرى فتياناً في المقاهي، يمزحون ويضحكون بصخب- في الساعة نفسها كان هو يفعل الشيء ذاته- كنت أستمدُّ من ذلك سبباً لمواصلة بلبلة هدوئه. ففي أكتوبر، اتفقنا على أن نقضي عطلة عيد الميلاد معاً في منطقة ثلجية مع صديقين عاشقين. ولم تكن لي نية تعديل هذا البرنامج.

كنا في منتصف ديسمبر.

كان ردفاي ونهداي يوسِّعان فساتيني. أصبحت ثقيلة لكن الغثيان انتهى. ويحدث أن أنسى أنني حامل في شهرين. كان ذلك، بلا شك، بسبب تجاهل المستقبل الذي يجعل الذهن ينوّم قلق النهاية، رغم الإدراك بحتميَّة ذلك وبأن الفتيات يتركن الأسابيع ثم الأشهر تمرُّ حتى النهاية. كنت أستمع إلى *كونشيرتو براندبورغ*، وأنا مستلقية على سريري، تحت أشعَّة شمس الشتاء التي تملأ زجاج النَّافذة، تماماً كما في السنة الماضية. كنت أشعر أن شيئاً لم يتغير في حياتي.

كتبت في مذكراتي: «يراودني انطباع بأنَّ حملي مجرَّد خيال»- «ألمس بطني. إنه هنا، ولا سبيل للمزيد من الخيال. إذا تركت الزَّمن يفعل فعله، فسيقع إخراج طفل من بطني في يوليو القادم. لكنني لا أشعر بذلك.»

قبل عشرة أيام من عيد الميلاد، طرقت لـ.ب باب غرفتي، في لحظة لم أتوقَّعها. كان جان ت قد التقى بها في الشارع وأبلغها رغبتي في رؤيتها. كانت ترتدي على الدوام نظاراتها الكبيرة والمخجلة ذات الإطار الأسود. ابتسمت لي. جلسنا على السرير ثمَّ أمدَّتني بعنوان المرأة التي تعاملَت معها، وهي ممرِّضة في منتصف العمر تعمل في مصحَّة، اسمها السيدة بـ-ر وتسكن في زقاق كاردينيه في الدَّائرة السابعة عشر بباريس. كان على كلمة «زُقاق» أن تثير ضحكي، لأنها كانت تستكمل الصورة الخيالية والقذرة لصانعة الملائكة. بيَّنت لي أن زقاق كاردينيه كان يفتح على شارع كاردينيه الكبير. لا أعرف باريس، ولا يذكِّرني هذا الشارع بشيء إلا بمتجر للمجوهرات يدعى كونتوار كاردينيه الذي كنا نسمع إشهاراً له في الراديو كل يوم. أخذت لـ.ب تعرض عليَّ بهدوء، بل وابتهاج، طريقة السيدة ب-ر في إجراء العملية، حيث تستعين بمنظار لتدخل مسباراً في عنق الرحم، ثم تنتظر أن يحدث الإجهاض. إنها امرأة جدية ونظيفة، تعقِّم أدواتها في الماء المغلي. لكن الماء المغلي لا يقضي على جميع الجراثيم، حيث أصيبت لـ-ب بتسمُّم في الدم جرَّاء ذلك. لن يحدث لي هذا إذا وصف لي طبيب عام مضادات حيوية فور إجراء العمليَّة، مهما كانت الذريعة. أخبرتها أنني أملك

وصفة بينيسيلين. كان كل شيء يبدو بسيطاً ومطَمئناً- في الأخير، وقفت لـ.ب أمامي، ثم قالت إن السيدة ب-ر تتقاضى أربعمئة فرنك. واقترحت عليَّ، بتلقائية، أن تقرضني المبلغ. وما كنت أحتاج إليه في ذلك الوقت، هو العنوان والمال.

(عدت إلى نقطة البداية لأحدِّد تلك التي تظهر لي الآن مثل أوَّل من تعاقب حولي من النِّساء، هؤلاء المهرِّبات اللَّواتي جعلني عِلمهنَّ وحركاتهن والقرارات الناجعة التي اتَّخذنها أتجاوز هذه الأزمة *نحو الأفضل*. أودُّ أن أكتب لقبها واسمها الجميل والرَّمزي هنا، ذلك الاسم الذي وهبها إياه والدان لاجئان من إسبانيا الفرانكوية. غير أن السبب الذي يدفعني لفعل ذلك- الوجود الحقيقي لـ (لـ.ب) التي لعلِّي سأكشف عن قيمتها للجميع- هو السبب ذاته الذي يمنعني من ذلك. أنا لا أملك الحق، استناداً إلى استعمال سلطة غير متبادلة، أن أتعرض في الفضاء العام لكتاب ما، لـ(لـ.ب)، بوصفها امرأة حقيقية، حيَّة، - كما أكَّده لي دليل الهاتف للتو- بإمكانها أن ترد عَليَّ ردّاً حاسماً قائلة إنها «لم تطلب مني شيئاً».

في يوم الأحد الماضي، بعد عودتي من الضفة النورماندية، عرَّجت على رُوان وسرت في شارع السَّاعة

الكبيرة حتى وصلت إلى الكاتدرائيَّة. جلستُ على رصيف مقهى في فضاء القصر الذي شيِّد حديثاً. لم أكفَّ، بسبب الكتاب الذي أكتبه، عن التَّفكير في سنوات الستينات، لكن لا شيء في وسط المدينة الفقيرة والملونة منحني هذا الشعور. لم تصبح هذه السَّنوات في متناولي إلا عبر مجهود مضن من التخيُّلات، يجبرني على أن أجرِّد المدينة من ألوانها وأن أعيد للجدران لونها المعتم والصارم، وإلى الشوارع التي تعجُّ بالمشاة سيَّاراتها.

أخذتُ أتفحَّص المارَّة، كما هي الحال في تلك الصور التي تخفي خطوطها شخصيات يجب اكتشافها، لعلَّ من بين هؤلاء المارَّة طالب من أولئك الطلبة القدامى لسنة ١٩٦٣ الذين أراهم بوضوح وأنا أكتب، وأصبحوا لامرئيين بالنسبة إليَّ الآن. على طاولة مجاورة لطاولتي جلست فتاة جميلة ذات بشرة سمراء كامدة وفم صغير وممتلئ، ذكَّرتني بـ«لـ.ب» وارتحت لاعتقادي أنها ابنتها»).

الذهاب إلى الماسيف سنترال، لقاء «بي» الذي لم أكن واثقة جداً من رغبته في رؤيتي، إنفاق جزء من المال الذي كان ضرورياً من أجل دفع ثمن عمليَّة إجهاضي، كلّ هذا كان حتماً ضرباً من الجنون. لكن لم يسبق لي أبداً أن

مارست رياضات الشتاء. كنت في حاجة إلى مُهلة قبل أن أذهب إلى زقاق كاردينيه الواقع في الدائرة ١٧.

أتأمَّل خريطة مونت-دور في دليل ميشلان، وأقرأ أسماء الشوارع: مايناديه، سيدوان- أبولينار، ومونلوزييه، شارع الكابتن كازوت، ساحة البانتيون، إلخ. وأكتشف أنَّ نهر الدوردوني يعبر المدينة التي توجد بها محطَّة استشفائية، كأنني أزور ذلك المكان للمرَّة الأولى.

كتبت في مفكَّرتي: «نرقص في الكازينو»- «نذهب إلى المصبغة»- «مساء الأمس، إلى مستودع الحصيد»، لكنني لا أرى شيئاً إلا الثلج والمقهى المكتظ الذي كان يجلس فيه الزبائن في نهاية الظهيرة وصندوق الأغاني يبث أغنية: *لو كان عندي مطرقة، لغمرتني السعادة.*

ذكريات أحداث تبعتها خصومات ودموع، أحداث من دون أحاديث. لا أستطيع توصيف ما كان يعنيه بالنسبة إليَّ الآن، لعلَّني أريد إرغامه على أن ينظر إلى هذا الإجهاض الذي قرَّرت القيام به تلبية مع ذلك لرغباتي ومصالحي، باعتباره تضحية، بل «دليلاً على الحب».

لم يكن آنيك وغونتران، وهما طالبان في شعبة القانون، على علم بحملي وبرغبتي في الإجهاض. ولم

يكن «بي» يرى جدوى من إخبارهما بالأمر، لأنه يعتبرهما بورجوازيَّين ومحافظَين أمام هذا الاعتراف- كانا مخطوبين، لكنهما لا يمارسان الحب. ويبدو أنه لا يريد أن يفسد جو العطلة بهذه المسألة وكان وجهه يتكدَّر كلما تحدثت في الموضوع. عندما كان في بوردو، لم يجد حلاً لمشكلتنا، إذ بدأت أشك في أنه بحث عنه حقاً.

أقام العاشقان المحظوظان جداً في فندق راق. أما أنا و«بي»، فقد سكنَّا في نزل صغير. كنا لا نمارس الحب كثيراً، وعندما نمارسه، نفعل ذلك بسرعة دون أن نستغلَّ وضعي كامرأة حامل -فقد حصل الضَّرر- ليس أكثر من دون شك من العاطل عن العمل الذي لا يستغلُّ الوقت والحرية اللذين يمنحه إياهما غياب العمل، أو من المريض الميؤوس من شفائه حين لا يغتنمُ فرصة السَّماح له بأكل وشرب كلِّ شيء.

كانت نبرة مزاح خفيفة ملحَ أحاديثنا كأصدقاء، تكاد لا تقطعها أحداث تافهة أو ملاحظة عنيفة سرعان ما توقفها كلها الرغبة في الانسجام. كانوا جميعاً قد أعدُّوا دروسهم وأرجعوا أوراق امتحاناتهم، اللامبالاة التي قرَّروا الاستسلام لها بحزم كانت جزءاً من عملهم الدَّؤوب كطلبة. كانوا

يرغبون في المزاح والرَّقص ومشاهدة فيلم *عصابة أعمامي*، فيما بات شغلي الشَّاغل خلال الفصل الثلاثي البحث عن وسيلة للإجهاض. كنت أجاهد نفسي لأبلغ سجلَّ مرحهم المستطير ولا أعتقد أنني سأبلغه. لقد كنت فتاة تبعيَّة.

لم أكن أجد شيئاً أهمّ من التمارين الرياضية، إذ تمنَّيتُ أن ينجح مجهود جسديٌّ قوي أو سقوط ما في أن ينتزعا مني ذلك «الشيء»، ويحولا دون زيارتي إلى السيِّدة المقيمة في الدائرة ١٧. عندما أعارتني آنيك زلّاجتها وحذاءها اللذين لم أكن أملك المال لاستئجارهما، تعمَّدتُ السقوط، معتقدة في كل مرة أنني أقوم بالرَّجة التي ستحرِّرني. ذات يوم، بينما رفض ‹بي› وآنيك الذهاب إلى أعلى، تابعت رفقة غونتران وحده الصُّعود إلى ‹بي-جيمال› بحذائي المصنوع من الجلد المزيَّف والواسع والممتلئ بالثَّلج. تقدَّمتُ وعيناي المنبهرتان باللَّمعان لا تحيدان عن المنحدر، وقد وجدت صعوبة أكبر في انتزاع حذائي من لوح التزلُّج، تحدوني رغبة واحدة وهي أن أُذهب هذا الجنين. كنت مُقتنعة بضرورة بلوغ القمة والحد الأقصى لقواي كي أتخلَّص منه. كنت أنهك نفسي لأقتله تحتي.

كلَّما فكَّرتُ في ذلك الأسبوع الذي قضيته في مونت-دور، أرى مساحة باهرة من الشمس والثلج تنفذ إلى

ظلمات شهر يناير، لأن ذاكرة بدائية تجعلنا، بلا شك، نرى كل الحياة الماضية على الشكل البسيط للظل وللنور. للنهار ولِلَّيل.

(وتظلُّ مسألة الدَّليل تطرق ذهني وأنا أكتب: خارج مذكَّرتي ومُفكِّرتي لتلك الفترة، يبدو أنني لا أملك أي يقين يخصُّ المشاعر والأفكار بسبب تجرُّد كل ما يمر في الذهن وتلاشيه.

وحدها ذكرى الأحاسيس المتعلِّقة بأشخاص وأشياء عاشت خارج ذاتي- ثلج بيجيمال، عينا جان ت الجاحظتان، أغنية الأخت ابتسامة، - تحمل لي دليل الحقيقة- الذاكرة الحقيقية الوحيدة ماديَّة.)

في يوم ٣١ ديسمبر، غادرت مونت-دور على متن سيارة عائلة وافقت على اصطحابي معها إلى باريس. لم أشارك في الحديث. وفي لحظة ما قالت امرأة إن الفتاة القاطنة بحجرة الخادمة أجهضت. «ظلَّت تئن طوال الليل». لم أتذكر، من الرحلة كلها، سوى الجوِّ الماطر وهذه الجملة. كانت تنتمي إلى فصيلة تلك الجمل المفزعة تارة والمطمْئنة والمجهولة نوعاً ما تارة ثانية، جمل دفعتني نحو الشقاء، ورافقتني كأنني ضحيَّة حتى يحين دوري.

(يبدو لي أنني شرعت في كتابة هذه القصة لأصل إلى

تمثُّل هذه الصور التَّابعة لشهر يناير من سنة ٦٤ في الدائرة ١٧ بنفس الطريقة التي كنت أعيش بها وأنا في سن الخامسة عشرة لأبلغ صورة أو صورتين مُستقبليَّتين لي: وأنا مسافرة في بلد بعيد، وأنا أمارس الحب. لكنني أجهل حتى الآن أيّ الكلمات ستغمر مخيِّلتي ولا أدري ما ستأتي به الكتابة. كم أرغب في تأجيل هذه اللحظة، وتمديد مدة انتظاري، خوفاً ربما من أن تذيب الكتابة هذه الصور، كما هي حال صور الرغبة الجنسية التي سرعان ما تُمحى بعد رعشة الحب!)

في يوم الأربعاء الموافق للثامن من يناير ذهبت إلى باريس للقاء المرأة والاتِّفاق معها على التَّفاصيل العمليَّة: اليوم، المبلغ المطلوب. وحتى أوفِّر بعض المال، قمت بالرحلة عبر الأتوستوب أسفل ضفة سانت كاترين. في وضعي ذاك، مهما كان الخطر ضئيلاً أو جسيماً، ما عادت له أهميَّة. كان الثلج الذائب يتساقط. توقَّفت سيارة ضخمة، «إنها سيارة جاغوار»، قال السائق مجيباً عن سؤالي. كان ممسكاً بالمقود بطرف ذراعه، ويرتدي قفَّازين، ويلزم الصَّمت. أنزلني في نويلي، ومن هناك ركبت الميترو. عندما وصلت إلى الدائرة ١٧، كان اللَّيل قد أسدل ستاره. كُتبتْ على لوح الشارع عبارة «ممر كاردينيه»، لا «زقاق كاردينيه».

كانت هذه إشارة مطمئنة بالنسبة إليَّ. وصلت إلى رقم... وهي عمارة بالية. كانت السيدة ب-ر تسكن في الطابق الثاني.

صعدت آلاف الفتيات سلَّماً، وطرقن باباً توجد خلفه امرأة لا يعرفن عنها شيئاً، امرأة سيسلِّمن إليها فروجهنَّ وبطونهنَّ. فتحت هذه المرأة، الوحيدة القادرة على أن تصرف الشقاء، الباب مرتدية مئزراً وخفَّين بنقاط كبيرة وتمسك بيدها خرقة. «لماذا أتيت آنستي؟»

كانت السيدة ب-ر قصيرة وبدينة، تشدُّ شعرها في شكل كُعيكة رمادية اللَّون وترتدي ملابس قاتمة. كانت شبيهة بالنساء الريفيَّات الطَّاعنات في السن. أدخلتني بسرعة إلى مطبخ ضيِّق وأسود، ثم نقلتني إلى غرفة أكثر اتَّساعاً بها أثاث قديم. يتكوَّن المسكن من هاتين الحجرتين فقط. سألتني متى كانت آخر مرة زارتني فيها العادة الشَّهرية. وكانت ثلاثة أشهر بالنسبة إليها الفترة الأمثل للقيام بعملية الإجهاض. فتحت معطفي وتحسَّست بطني بيديها فوق التنورة متعجِّبة بشيء من الرضا: «لديك صفيحة صغيرة». ثمَّ أضافت رافعة كتفيها عندما حدَّثتها عن المجهودات التي

بذلتها في ممارسة رياضة الشتاء: «هل تصدِّقين لقد استعاد قوَّته!» كانت تتحدث عنه ببهجة كما لو أنها تتحدث عن وحش مفترس».

وقفتُ بالقرب من السَّرير قبالة هذه المرأة صاحبة البشرة المائلة إلى اللَّون الرَّمادي، المرأة التي كانت تتحدث بسرعة وبحركات عصبية والتي كنت سأسلِّمها أعماق بطني حيث مكمن الدَّاء.

طلبت مني العودة الأربعاء المقبل. إنه اليوم الوحيد الذي كان في وسعها أن تجلب فيه المنظار من المصحَّة التي تعمل بها. ستُدخل في رحمي مسباراً من دون الاستعانة بأيِّ شيء آخر لا صابون سائل ولا ماء جافيل. ثم أكَّدت لي التَّعريفة، أربعمئة فرنك نقداً. كانت تتحكَّم في كلِّ شيء بحزم- كانت متحفِّظة، لا ترفع الكلفة وصامتة، لا تطرح أي سؤال- بل تذهب مباشرة نحو الهدف الأساسي. تاريخ آخر دورة شهريَّة.. السِّعر.. التّقنية المستعملة.. كانت هذه الماديَّة الخالصة تملك خاصيَّة غريبة تبعث على الاطمئنان، خالية من المشاعر والأخلاق. كانت السيدة بـ.ر تعرف، بفضل خبرتها وتجربتها، معرفة أكيدة أن الحديث الذي

يقتصر على التفاصيل العمليَّة يمنع الدموع والبوح الذي يضيِّع الوقت أو يدفع إلى تغيير الرأي.

عندما سأتذكَّر عينيها لاحقاً، عينيها اللتين كانت ترمشهما بسرعة، وشفتها السُّفلى التي كانت تدخلها وتمضغها في فترات متباعدة، كأنَّها تخفي شيئاً ما داخلها، سأزعم أنها كانت تشعر بالخوف هي أيضاً، لكن بنفس طريقتي في إصراري على إتمام عمليَّة الإجهاض مهما كلَّف الأمر. لا شيء بإمكانه أن يوقفها، طلباً للمال طبعاً وربما أيضاً بسبب شعورها بضرورة أن تكون مفيدة للنساء. أو لعلَّها تفعل ذلك من أجلها هي، المرأة التي كانت تفرغ طوال اليوم أحواض المريضات أو النُّفساء، السرور الخفي في أن تحظى، داخل شقتها الصغيرة بممر كاردينيه، بنفس السُّلطة التي يضطلع بها الأطباء الذين يكادون لا يلقون عليها التحية. لهذا كان يجب أن تطلب سعراً عالياً نظراً للمخاطر التي يمكن أن تحيق بالعمليَّة، من أجل هذا العلم الذي لن يُعرَف قط، والعار الذي ستُحمِّلنا إيَّاه بعد ذلك.

بعد زيارتي الأولى إلى ممر كاردينيه، بدأت أحقن البنيسيلين. لم يعد هناك مكان في أعماقي إلا للخوف. كان يتراءى لي مطبخ السيدة ب-ر وغرفتها من دون الرَّغبة في

تخيُّل ما الذي ستفعله بي. في مطعم «أو»، أخبرت مجموعة من الفتيات بأنني سأجري عملية لانتزاع شامة كبيرة في ظهري وبأنني أشعر بالخوف جرَّاء ذلك. بدت عليهن الدَّهشة لإظهاري قلقاً من أجل عمليَّة بسيطة كتلك. لكن اعترافي بالشعور بالخوف كان يريحني: كانت تكفيني ثانية واحدة فقط لأتخيَّل أنه عوضاً عن مطبخ وحارسة عجوز تنتظرني قاعة عمليات نظيفة وجرَّاح بقفازات مطَّاطيَّة.

(أن أستشعر الآن ما كنت قادرة على استشعاره من قبل بات أمراً مستحيلاً، إلا عندما أختار مصادفة، وأنا أقف في الصف، في السوق، أو في مكتب البريد، أيَّ امرأة في الستينات من العمر، ذات مظهر قاس وسمج، متخيِّلة أنها تحشو في فرجي شيئاً مجهولاً، إلى درجة أن أدخل في حالة شبيهة بتلك التي كنت غارقة فيها مدَّة أسبوع).

في يوم الأربعاء الموافق للخامس عشر من شهر يناير ركبت القطار عند الظَّهيرة باتِّجاه باريس. وصلت إلى الدائرة ١٧ قبل ساعة من الموعد الذي حدَّدته السيدة ب-ر. فتسكَّعتُ في الشوارع المحيطة بممرٍّ كاردينيه. كان الجو لطيفاً ورطباً. دخلت كنيسة سانت-شارل بارومي،

حيث ظللت جالسة لوقت طويل راجية الرَّب ألَّا أتألَّم. لم يحن الوقت بعد. انتظرت في مقهى قريب من ممر كاردينيه وأنا أحتسي شاياً. إلى الطاولة المجاورة، جلس طلبة هم الزبائن الوحيدون في المحل، كانوا يلعبون الكراش ٤٢١، فيما كان صاحب المقهى يمازحهم. لم أكفَّ عن النظر إلى ساعتي. وعندما حانت لحظة المغادرة، دلفت إلى الحمام، كما هي عادتي التي غُرست فيَّ منذ الطفولة والقاضية باتِّخاذ كل الاحتياطات قبل أي حدث مهم. نظرت إلى نفسي في المرآة المعلَّقة فوق حوض الغسل، مردِّدة في نفسي تقريباً: «هذا يحدث لي أنا»، «لن أتحمَّل».

كانت السيدة ب-ر قد جهَّزت كلَّ شيء. رأيت فوق قنينة الغاز إناء من الماء المغلي، يحوي أدوات طبيَّة بالتأكيد. أدخلتني إلى الغرفة وقد بدت مستعجلة للشُّروع في العمل. وُضعت طاولة على طول السَّرير كانت مغطَّاة بشرشف حمَّام أبيض. نزعتُ جوربي اللَّصيق وتبَّاني. يبدو لي أنني احتفظت بتنُّورتي السوداء لأنها كانت واسعة. سألتني عندما كنت أنزع ملابسي: «هل نزفت كثيراً عندما افتُّضت بكارتك»؟ ثم وضعت نصفي الأعلى على السَّرير ورأسي على مخدَّة، وأردافي وساقاي مضمومتان على الطاولة في وضعيَّة مرفوعة. لم تكفَّ عن الكلام، وهي

منهمكة بالعمل، مبيِّنة من جديد أنها بصدد إدخال مسبار ولا شيء آخر. حدَّثتني عن وضعية أمٍّ عُثر عليها ميتة في الأسبوع الماضي، تركتها امرأة على طاولة في غرفة الطعام بعد أن حقنتها بماء جافيل. كانت السيدة ب-ر، وهي تروي لي ذلك، تبدو ثائرة وساخطة عن غياب للضَّمير المهني إلى هذا الحد. نطقت بتلك الكلمات لتطمئنني. لكنَّني تمنيت لو أنها لم تتفوَّه بها. سأخمِّنُ فيما بعد أنها كانت تنشد البحث عن شكل من أشكال التميُّز في عملها.

جلسَت أمام الطاولة أسفل السرير.

حدَّقتُ طويلاً في النافذة ذات السَّتائر، ونوافذ أخرى غيرها من الجانب الآخر من الطريق. كان رأس السيدة ب-ر الرَّمادي مغروزاً بين ساقيَّ. لم يخطر ببالي أن بإمكاني أن أكون هنا. لعلَّني تذكَّرت الفتيات اللواتي كنَّ في اللحظة نفسها مُنكبَّات على كُتُبهنَّ في الكليَّة. تذكرت والدتي وهي بصدد كيِّ الملابس ودندنة لحن أغنية ما. تذكرت بي- سائراً في شارع من شوارع بوردو. لكننا لسنا في حاجة إلى تذكّر الأشياء كي تحاصرنا، وكي ندرك، بلا شك، أنَّ نسق الحياة كان يتواصل كما في السابق بالنسبة إلى أغلب الناس الذين يدفعونني لأردد بيني وبين نفسي: «ماذا أفعل هنا؟»

وصلت ذاكرتي إلى صورة الغرفة، تلك التي ترهق التَّحليل ولا أملك إلا أن أغرق فيها. أعتقد أن هذه المرأة التي كانت تنشط بين ساقيَّ، المرأة التي تدخل المسبار في باطني، كانت تَلدني.

لقد قتلتُ والدتي في داخلي في تلك اللَّحظة.

ظلَّت هذه الغرفة وهذه الستائر محفورة في ذاكرتي طوال سنوات، تماماً كما رأيتها من السَّرير الذي كنت نائمة عليه. لعلَّها أصبحت غرفة مضيئة مؤثثة من إيكيا داخل شقة شابٍّ موظف كبير اشترى الطابق بأكمله. لا شيء بمقدوره أن يحدَّ يقيني من أنها تحتفظ بذكرى الفتيات والنساء اللواتي أتين ليُثقَبن بمسبار.

شعرتُ بألم فظيع. فقالت: «كفَّ عن الصُّراخ يا صغيري»، «يجب أن أقوم بعملي». لعلَّها قالت كلمات أخرى لم تكن تعني إلَّا شيئاً واحداً فقط: وجوب الذهاب حتَّى النهاية. كلمات عثرتُ عليها مجدداً في حكايات نساء أجهضن سرّاً كأنه لا يمكن أن توجد في تلك اللحظة سوى هذه الكلمات وشعور بالتَّعاطف أحياناً.

لم أعد أعرف كم من الوقت استغرقت لتغرز المسبار. أخذتُ أبكي بعد أن كفَّ الألم، حيث لم أعد أشعر سوى بثِقلٍ في بطني. أخبرتني بأن الأمر قد انتهى ونهتني عن لمس أيٍّ شيء. كانت قد وضعت كتلة كبيرة من القطن في حالة سال مني ماء. بإمكاني المشي والذَّهاب إلى الحمام حتماً. سينزل الحمل في ظرف يوم أو يومين، وإلا فيجب أن أتَّصل بها. احتسينا معاً قهوة في المطبخ. كان هذا عملاً جبَّاراً بالنسبة إليها ولا أذكر متى سلَّمتها المال.

شعرتْ بالقلق لمعرفتها كيف سأعود إلى المنزل. فأصرَّت على اصطحابي حتى محطَّة جسر كاردينيه حيث سيقلُّني قطارٌ مباشرة إلى سانت- لازار. كانت تحدوني رغبة في الذهاب بمفردي وعدم رؤيتها مجدَّداً. لكنني لم أكن أريد إحراجها برفضي اهتمامها الذي لم أشكّ في صدقه، بينما يغزوها شعور بالخوف من أن يلتقفوني وأنا مغمى عليَّ في الطريق إثر خروجي من عندها. سارعت إلى ارتداء معطف دون أن تنزع خفَّيها.

أضحى كلُّ شيء في الخارج وهميّاً فجأة. سرنا جنباً إلى جنب وسط الطريق. تقدَّمنا نحو نهاية ممرٍّ كاردينيه الذي كانت واجهته يخفيها جدار عمارة، حيث لا يظهر

منها إلا فتحة نور. إنه مشهد بطيء صار فيه النَّهار معتماً. لا شيء من طفولتي وحياتي السابقة يحرِّضني على وجودي هنا. التقينا بمارَّة، خُيِّل إليَّ أنهم كانوا ينظرون إليَّ، ويدركون ما حصل. شعرت أن العالم قد تخلَّى عني، عدا هذه المرأة العجوز ذات المعطف الأسود والتي ترافقني كأنها أمي. كانت بجلدها الرمادي توحي لي بالاشمئزاز، في ضوء الشارع، خارج كهفها. كانت المرأة التي أنقذتني شبيهة بساحرة أو قابلة عجوز.

أعطتني بطاقة وانتظرت معي على الرَّصيف قطاراً متَّجهاً نحو سانت-لازار.

(لم أعد أذكر ما إذا كانت قد احتفظت حقاً بخفَّيها. وكَوني منحتها دوماً تلك العادة، عادة أولئك النِّسوة اللواتي يخرجن هكذا من عندها من أجل قضاء حاجة في دكان البقالة الذي يقع في الزاوية، كانت بالنسبة إليَّ صورة نمطيَّة للوسط الشعبي. الوسط الذي كنت بصدد هجره وقتها).

انتظرتُ حدوث انقباضات يومَي السَّادس عشر والسَّابع عشر من يناير. كتبت إلى (بي) وأخبرته بعدم رغبتي في رؤيته مجدَّداً. وأعلمت والديَّ بعودتي في عطلة نهاية

الأسبوع من أجل الذهاب لمشاهدة رقصة فالس فيينا بعد أن أوحت لي ملصقات الدِّعاية لهذا الحدث الموجودة في كل مكان بِرُوان بهذا العذر الذي يمكن أن يتأكَّدا من صحَّته في الصَّحيفة.

لم يحدث شيء. لم أشعر بألم. وفي مساء يوم الجمعة الموافق للسَّابع عشر من يناير، اتَّصلت بالسيدة ر-ب من مكتب البريد قرب المحطة، فطلبت مني العودة لرؤيتها في صباح اليوم التالي. كتبتُ في مفكرتي التي لم أخُطَّ فيها شيئاً منذ فاتح يناير، في الصفحة المخصَّصة لتاريخ ١٧ يناير: «أنا في حالة انتظار دائمة. غداً سأذهب لرؤية صانعة الملائكة، بما أنها لم تُوفَّق في مُهمَّتها.»

في يوم السبت الموافق للثَّامن عشر من يناير ركبتُ القطار المتَّجه نحو باريس في ساعة مبكرة. كان الجو بارداً وكلُّ شيء يكسوه البياض. جلست فتاتان في العربة خلفي كانتا تتحدثان من دون انقطاع وتضحكان بانتظام. شعرت بالاستماع إليهما أنني طاعنة في السِّن.

استقبلتني السيدة ب-ر بتعابير عن استيائها من البرد القارس. ثمَّ أدخلتني بسرعة. وجدتُ رجلاً جالساً في المطبخ، أصغر منها سناً يعتمر طاقيَّة. لم يبدُ متفاجئاً، ولا

منزعجاً من رؤيتي. لا أذكر هل ظلَّ هناك أم غادر المكان. لكنه قال كلمات جعلتني أعتقد حينها أنه إيطالي. وَضعت على الطَّاولة إناءً مليئاً بالماء السَّاخن، يطفو فيه أنبوب رقيق وأحمر اللَّون. أدركت أنه المسبار الجديد الذي قرَّرت أن تولجه فيَّ. لم أرَ المسبار الأول، وهذا كان شبيهاً بثعبان. كما وُضع مشط إلى جانب الصَّحن.

(لو ملكتُ القدرة على التَّعبير عن هذا الحدث، حدث حياتي، بلوحة فنية، فسأرسم طاولة صغيرة متَّكئة على جدار يغطيها شرشَف من الفورميكا، وُضع عليها إناء مزخرف يطفو فيه مسبار أحمر. وأرسم مشطاً على اليمين قليلاً. لا أصدِّق وجود ورشة *لصانعة الملائكة* في أي متحف في العالم).

أدخلتني إلى الغرفة، كما في المرَّة الأولى. لم أعد أشعر بالخوف مما ستقوم به، ولا بالألم في الوقت الذي كانت تنزع فيه المسبار القديم، لتضع مكانه المسبار الموضوع في الإناء. صرخَت: «أنت منهمكة كليّاً بالعمل». كانت هذه جملة قابلة. لم أظن، إلى حدِّ الآن، أن كل هذا يمكن أن يقارن بعمليَّة ولادة. لم تطلب مبلغاً إضافياً، وإنما أن أعيد

إليها المسبار إذ كان من الصعب بالنسبة إليها أن تعثر على هذا النوع.

في قطار العودة من باريس، جلست امرأة في مقصورتي، كانت تصقل أظافرها من دون انقطاع.

الدور العملي للسيدة ب–ر يتوقف هنا. كانت قد أنهت عملها وأعلنت البرنامج الذي يمحو الشقاء. مهمَّتها توقَّفت هناك.

(وأنا أكتب، حاول لاجئون من كوسوفو الدُّخول بشكل غير شرعي إلى إنجلترا عبر كالي. يطلبُ المهرِّبون مبالغ طائلة، ثم يختفون أحياناً قبل العبور. لكن لا شيء يمكن أن يوقف سكان كوسوفو، ولا كلَّ اللاجئين المهاجرين من البلدان الفقيرة: لم يكن لديهم أيُّ سبيل آخر للخلاص. نطارد المهرِّبين، نأسف على وجودهم، كما كنا نأسف منذ ثلاثين سنة على وجود المُجهضات. ولكن لا يجرَّم القانون والنظام العالمي اللذان يحرِّضان على هذا الفعل. لا بد أن يَوجد من بين مُهرِّبي المهاجرين، كما هي الحال في ما مضى، من بين مُهرِّبي الأطفال، أشخاص أكثر شرعيَّة من غيرهم.

سارعت إلى تمزيق الصَّفحة التي كُتب عليها اسم السيدة ب–ر من دفتر عناويني. لكنَّني لم أنسه. فقد صادفت تلميذاً في الصف السادس حمل هذا الاسم بعد ستٍّ أو سبع سنوات. تلميذ أشقر صموتٌ بأسنان مسوَّسة، فارع الطول، سنّه أكبر من أن يوجد في هذا القسم. عجزت عن التَّواصل معه أو قراءة اسمه على ورقة امتحان دون أن أرفقه بذكرى امرأة ممر كاردينيه. لم يوجد هذا الفتى أبداً في ذاكرتي إلَّا متوائماً مع صانعة ملائكة عجوز كان يُخيَّل إليَّ أنه حفيدها. أما الرجل الذي التقيت به في مطبخ السيدة ب–ر، وهو بلا شك رفيقها، فقد رأيته لسنوات في متجر الخياطة بآنيسي في ساحة نوتردام: إيطالي صاحب نبرة قوية وطاقيَّة مغروزة على الرأس، إلى درجة أنَّه بات من الصَّعب عليَّ الآن التَّفريق بين الأصل والنسخة، وأن أُسكِن في ممر كاردينيه، ذات سبت بارد من شهر يناير، ذاك الذي باعني في سنوات السَّبعينات، أنا وامرأة قصيرة وسريعة وطاعنة في السن، حزام شدٍّ وأقفالاً من العاج الطَّبيعي).

عندما نزلت من القطار، اتَّصلتُ بالدكتور ن وأخبرته بأنني وضعت مسباراً. لعلَّني قلت ذلك آملةً أن يدعوني إلى عيادته، كما حصل في الشهر الماضي ويتولَّى مسؤوليَّة

إجهاضي بأكملها، عوضاً عن السيدة ب-ر. لكنَّه لزم الصَّمت ثم نصحني بمازوجينستريل[1]. أدركت من نبرة صوته أن رؤيتي كانت آخر شيء يرغب فيه، وأنه يجب ألَّا أعاود الاتِّصال به.

(كنت عاجزة عن تخيُّله- كما قدرتي على فعل ذلك الآن- وقد غمره العرق فجأة في مكتبه، وهو يستمع إلى هذا الصوت الأنثوي الذي يخبره بأن رحم صاحبته يحمل مسباراً منذ ثلاثة أيام. تجمَّد في مكانه تحت وطأة المعضلة. لو قبل برؤيتها، فإن القانون يجبره على انتزاع هذه الآلة فوراً، والمحافظة على حملها الذي ترفضه. ولو اعترض، فستكون مهدَّدة بالموت. لا شيء جدير بالاختيار. عليها إذاً، كحلٍّ وحيد، أن تستعمل الماجونستريل.)

دخلتُ إلى أقربِ صيدلية قبالة الميتروبول لشراء الدَّواء الذي وصفه الدكتور ن. كانت الصيدلانية امرأة: «هل لديكِ وصفة؟ لا يمكن أن نصرفه لكِ من دون وصفة». كنت أقف وسط الصيدلية، بينما يقف خلف النضد صيدليان أو ثلاثة يِرتدون مآزر بيضاء كانوا يحدِّقون فيّ. كان غياب الوصفة نذير اتهام. شعرتُ أنهم كانوا يرون المسبار من خلف

(١) لست واثقة من اسم هذا الدَّواء المضاد للألم الرَّحمي والذي لم يعد يُصرف في الصيدليات (الكاتبة)

ملابسي. كانت هذه إحدى اللحظات التي بدوت فيها في عمق يأسي.

(هل لديك وصفة؟ يجب أن توجد وصفة! كنت عاجزة تماماً عن سماع هذه الكلمات، والصَّيدلاني يطأطئ رأسه على الفور، عندما أجاب إجابة حاسمة: لا.

أحياناً وأنا أكتب يجب أن أقاوم حمَّى الغضب أو الألم. لا أريد أن أُحدِث في هذا النص ما عجزت عن القيام به في الحياة في تلك اللحظة، أو أن أصرخ وأبكي على الأقل. لا قدرة لي إلا على البقاء قريبة جداً من الإحساس بمساحة شقاء قصيرة، كما منحني إياها سؤال صيدلانية ورؤية مشط موضوع إلى جانب إناء مليء بالماء يطفو فيه مسبار. إذ إنَّ البلبلة التي أشعر بها، وأنا أعيد مشاهدة صور والاستماع مجدَّداً لكلمات، لا علاقة له بما كنت أشعر به في ذلك الوقت. إنها فقط عاطفة كتابة. أعني: تلك التي تدفع إلى الكتابة وتأتي كدليل على الحقيقة.)

في عطلة نهاية الأسبوع لم يبق بالحيِّ الجامعي سوى الطَّالبات الأجنبيَّات وبعض الفتيات اللَّواتي كان آباؤهن يسكنون بعيداً. كان مطعم (أو) المجاور مغلقاً. لكنَّني لم

أكن في حاجة إلى الحديث إلى أيٍّ كان. في ذاكرتي لا وجود للخوف، بل شعور ما شبيه بالسَّكينة، ذاك الذي لا يعني شيئاً آخر سوى الانتظار.

لم أكن قادرة على الكتابة، ولا على سماع الموسيقى. تناولت ورقة ورسمت ممرَّ كاردينيه، تماماً كما ظهر لي وأنا خارجة من عند المجهِضة. جدران عالية تتقارب بشقٍّ في وسطها. إنها المرة الوحيدة في حياتي التي شعرت فيها برغبة في الرَّسم كفتاة راشدة.

في ظهيرة يوم الأحد، سرت في شوارع مونت-سانت-أنيان الباردة والمشمسة. لم يعد المسبار يزعجني. صار هذا الشيء جزءاً من بطني، وحليفاً كنت ألومه فقط على تأثيره البطيء.

كتبت في مذكراتي، في الخانة المخصَّصة ليوم التَّاسع عشر من يناير: «آلام صغيرة. أنا أتساءل كم يلزم من الوقت حتى يموت هذا الجنين ويُطرد خارجاً. سمعت بوقاً يعزف النَّشيد الرَّسمي الفرنسي، ضحكات في الطابق العلوي، وكل هذا، هو الحياة».

(لم يكن ذلك شقاء إذاً. فما كان حقاً سأبحث عنه

ربَّما في ضرورة أن أتخيَّلني مرَّة أخرى في تلك الغرفة، في ذلك الأحد، حتَّى أتمكَّن من كتابة روايتي الأولى، *الخزائن الفارغة*، بعد ثماني سنوات، رغبة في الاحتفاظ بحياتي كاملة وحتى سن العشرين، في ذلك الأحد، وفي تلك الغرفة.)

في صباح يوم الاثنين، كانت قد مضت أيام خمسة وأنا أعيش مع مسبار. عند الظَّهيرة ركبت القطار المتجه نحو إي.. رحلة ذهاب وعودة سريعة إلى منزل والديَّ، خشية ألا أكون في حالة جيِّدة تسمح لي برؤيتهما يوم السَّبت الموالي. لعلَّني كنت، كما العادة، أضرب أخماسي في أسداسي لمعرفة ما إذا كان لدي الوقت لأقوم بمخاطرة كهذه. كان الطَّقس دافئاً، فتحت أمي خلاله نوافذ الغرف. تفقَّدتُ تُبَّاني فوجدته مبقَّعاً بالدم والماء السائلين على طول المسبار الذي بدأ يخرج من فرجي. شاهدت عبر النَّافذة منازل الحي المنبسطة، والحدائق. لم يتغير المشهد ذاته منذ طفولتي.

(هذه الصورة غطَّتها صورة أخرى تسبقها بتسع سنوات. تلك المتعلِّقة بالبقعة الوردية، بقعة الدم والأمزجة التي خلَّفتها على مخدتي قطتي الميتة مذ كنت في المدرسة.

قطتي التي دفنت عند عودتي خلال ظهيرة من ظهيرات شهر أبريل، برفقة صغارها الذين ماتوا بدورهم في بطنها.)

ركبتُ الأوتوراي المتَّجه نحو رُوان على السَّاعة الرابعة وعشرين دقيقة. لم تدم الرِّحلة إلا أربعين دقيقة. جلبت معي، كما هي العادة، نيسكافيه والحليب المركَّز وعلب البسكويت.

كان يعرض فيلم *المدمرة* بوتمكين بنادي السينما بـ«لافالوش»، خلال ذلك المساء. ذهبت لمشاهدته برفقة «أو». شعرت بآلام لم أُولِها أهمية في البداية، لكنها أخذت تضغط على بطني من وقت إلى آخر. كنت أحدِّق، مع كل انقباض، في الشَّاشة حابسة أنفاسي. بدأ الزَّمن يتقلَّص ولم أعد أتابع الفيلم. ظهر على الشاشة رُبْع من اللَّحم المعلَّق في صنَّارة يعجُّ بالدِّيدان. كان هذا آخر مشهد طبع ذاكرتي. وقفت وركضت نحو الحيِّ الجامعي. نمتُ وبدأت أتشبَّث برأس السرير مانعة نفسي من الصراخ. تقيَّأت ما في جوفي. وعندما عادت «أو» لاحقاً بعد نهاية الفيلم، جلست بالقرب مني، وهي لا تدري ما الذي عليها فعله. نصحتني بأن أتنفَّس، مثلما تفعل النساء خلال الولادة، من دون ألم، أو كما يفعل كلب صغير. لم يكن بمقدوري أن ألهث إلا بين

الآلام اللَّامتناهية. كانت الساعة قد جاوزت منتصف اللَّيل. ذهبت «أو» لتنام، وطلبت مني مناداتها إذا احتجت إليها. ونحن نجهل بأيِّ شيء ستكون النِّهاية شبيهة.

انتابتني رغبة عنيفة في التغوُّط فركضتُ إلى الحمام في الطَّرف الآخر من الرِّواق. جلست القُرفصاء أمام الحوض قُبالة الباب. كنت أرى بلاط الأرضية بين فخذَي. أخذت أدفع بكل ما أوتيتُ من قوَّة فانفجر ذلك مثل قنبلة يدوية في دفقٍ مائي انتشر حتى الباب. لمحت جنيناً صغيراً يتدلَّى من فرجي في نهاية حبل سرِّي مائل إلى الاحمرار. لم أكن أتخيل أنني أحمل مثل هذا الشَّيء في داخلي، الشيء الذي يجب أن أسير به حتى غرفتي. أمسكت به بإحدى يديَّ- كان ذا ثقل غريب، وسرتُ في الرِّواق حاضنة إياه بين فخذي.. صرت شبيهة بوحش!

كان باب غرفة «أو» موارباً، والنور مشتعلاً. قلت لها بهدوء: «انتهى كلُّ شيء»..

ذهبنا إلى غرفتي. جلستُ على السرير والجنين بين

ساقيَّ. ولا نعرف ما الذي يجب فعله. قلت لـ«أو» إنَّ علينا قطع الحبل السري. فتناولت مقصّاً ونحن نجهل في أيِّ موضع يجب أن نقطعه. لكنها فعلت ذلك في النهاية. أخذنا ننظر إلى الجسد الصغير برأسه الكبير وقد لاحت عيناه مثل لطختين زرقاوين تحت الأجفان الشفافة. بدا شبيهاً بدمية هنديَّة. نظرنا إلى العضو الجنسي، فهُيِّئ إلينا أننا نرى بداية تشكُّل قضيب ذكريٍّ. هكذا استطعت إتيان هذا الإنجاز. جلسَت «أو» على مقعد. انفجرت باكية وشاركتها البكاء في صمت. إنه مشهد بلا اسم، الحياة والموت في آن معاً. مشهدُ تضحية.

لا ندري ما الذي يجب أن نفعله بالجنين. ذهبَت «أو» إلى غرفتها، لتجلب كيس بسكويت فارغاً. وضعْتُه فيه وسرتُ حتى الحمام حاملة الكيس الذي شعرت أنَّ في داخله صخرة، ثم أدرته داخل الحوض وسحبت السِّيفون.

في اليابان يُسمُّون الأجِنَّة المجهَضين: «ميزوكو»، أي أطفال الماء.

جرت أعمال الليل على نحو بديهيٍّ. لم يعد لدينا ما نفعله في تلك اللحظة.

لم تكن «أو»، بمعتقداتها ومثاليَّتها البورجوازيَّة، مُهيَّأة لقطع الحبل السري لجنين يبلغ من العمر ثلاثة أشهر. لعلَّها تتذكر هذه الحادثة، في هذه الساعة، كفوضى مبهمة، أو حدث شوَّه حياتها. لعلَّها تدين عمليات الإجهاض. لكنها هي من يتراءى لي وجهها الصغير مقطَّباً بفعل البكاء. هي وحدها التي وقفت إلى جانبي في تلك الليلة في الدَّور المرتجل لقابلة، داخل الغرفة رقم ١٧ في الحي الجامعي.

نزفتُ كثيراً. لم أنتبه للأمر في البداية، ولم أتَّخذ حذري ظناً مني أن كلَّ شيء قد انتهى. كان الجنين يخرج من الحبل السري على نحو متقطِّع. استلقيت على السَّرير من دون حراك فيما كانت «أو» تمدُّني بمناشف سرعان ما تتشرَّب الدم. رفضتُ اللُّجوء إلى الأطباء، حيث استطعت، إلى حدِّ الآن، أن أتدبر أمري من دون مساعدتهم. أردت النُّهوض، لكني لم أرَ إلَّا بريقاً لمع في عينيَّ. ظننت أنني سأموت بسبب نزيف دمويٍّ وصرخت بـ«أو»، طالبة منها استدعاء طبيب في الحال. فنزلت وطرقت باب الحارس، لكنه لم يُجب. ثم سمعتُ أصواتاً وبتُّ واثقة أنني فقدت الكثير من الدِّماء.

بوصول الطبيب المناوب بدأ النصف الثاني من اللَّيل،

النصف الثاني من تجربة الحياة والموت الخالصة التي تحوَّلت إلى عرضٍ ومحاكمة.

جلس على سريري وأمسكني من ذقني: «لماذا فعلت هذا؟» كيف فعلت هذا؟ أجيبي»! قال ذلك وهو يحدِّق بي بعينين متَّقدتين. رجوته ألَّا يتركني أموت. «انظري إليَّ. أقسمي لي أنك لن تفعلي هذا مرة أخرى! أبداًا!» اعتقدت بسبب عينيه المجنونتين أنه كان قادراً على أن يتركني أموت لو لم أقسم له. أخرجَ دفتر الوصفات الطبيَّة: «ستُنقلين إلى المستشفى الرَّئيسي. أخبرته بأنني أفضِّل الذهاب إلى مصحَّة. لكنه ردّ بحزم: «إلى المستشفى الرئيسي»، مبيِّناً لي أنَّ أنسب مكان بالنسبة إليَّ هو المستشفى. طلب مني أن أدفع له أجرة الفحص، لكني لم أكن أقوى على الوقوف. ففتح درج مكتبي بنفسه، وأخذ المبلغ من محفظة النُّقود.

(عثرت مؤخَّراً على هذه الحادثة مدوَّنة في أوراقي. منذ عدة أشهر وأنا ألاحظ أنني كنت أستعمل الكلمات نفسها. «كان قادراً على أن يتركني أموت.. إلخ». وهي أيضاً التشبيهات نفسها التي طرقت مُخيِّلتي كلما تذكَّرتُ لحظة إجهاضي في الحمَّام. دفقٌ شبيه بانفجار قنبلة أو

قنبلة يدوية، كغطاء خشبي لقنينة ينطُّ عند فتحها. تبدو لي استحالة قول هذه الأشياء بكلمات مختلفة، هذا الالتحام النِّهائي بين واقعٍ ماضٍ وصورةٍ، في غياب أيِّ صورة أخرى غيرها، دليلاً على أنني عشت الحدث *حقاً على هذا النَّحو.*)

أنزلوني من الغرفة على نقَّالة. بدا كلُّ شيءٍ لي ضبابياً وأنا من دون نظارتي: المضادَّات الحيويَّة، الدم البارد الذي طبع النِّصف الأوَّل من اللَّيل لم ينفعا في شيء. كل هذا انتهى في المستشفى. كان لديَّ شعور أنه جرى اقتيادي نحو النَّزيف مباشرة. ظللتُ أبحث عن مكمن الخطأ. إنه بلا ريب يبدأ في الحبل السري الذي ما كان علينا أن نقطعه. لقد فقدتُ التحكُّم في كلِّ شيء.

(أعتقد أنني سألقى نفس المصير عندما ينتهي هذا الكتاب. إصراري، جُهودي، كل هذا العمل السري بل واللَّاشرعي، بما أن لا أحد يشكُّ في أنني أكتب حول هذا الموضوع، ستضمحلُّ فجأة، ولن تكون لي أيُّ سلطة على نصِّي الذي سيُعرَض كما عُرِض جسدي في المستشفى.)

وضعوني على سريرٍ متحرك في ممرٍّ تكثر فيه حركة

الرَّائحين والقادمين أمام المصعد. لم يحن دوري بعد. جاءت فتاة ذات بطن كبير، ترافقها امرأة أخرى هي والدتها بالتأكيد. قالت إنها ستلد. رفضت الممرِّضة العناية بها، لأن وقت ولادتها لم يحن بعد. لكن الفتاة كانت ترغب في البقاء. نشبت مشادَّة كلاميَّة بينهما، غادرت على إثرها صحبة مرافقتها. عندها هزَّت الممرضة كتفيها قائلة: «هذه تباغتنا منذ خمسة عشر يوماً». فهمتُ أن هذه المرأة البالغة من العمر عشرين سنة غير متزوِّجة. ورغم أنها احتفظت بالطفل، إلَّا أنَّها لم تُعامَلْ بشكل أفضل مني. كانت الفتاة المجهَضة والأم العزباء في أحياء رُوان الفقيرة تعاملان بنفس الطَّريقة، أو لعلَّهم كانوا يحتقرونها أكثر مني.

كنت عارية في قاعة العمليات. ساقاي مرفوعتان وداميتان ومعلَّقتان في الرِّكاب تحت نور ساطع وعنيف. كنت أجهل السَّبب خلف إجرائهم عمليَّة لي. لم يعد يوجد شيء ينتزعونه من بطني. توسَّلت إلى الجرَّاح الشَّاب بأن يخبرني بما سيفعله لي. فانتصب أمام فخذَيَّ المنفرجين وهو يصرخ: «أنا لست سبَّاكاً!»، وهي آخر كلمات سمعتها قبل أن أغرق في التَّخدير.

(«أنا لست سبَّاكاً!» هذه الجملة أشبه بتلك الجمل التي تشخِّص هذا الحدث. جمل عاديَّة جداً، نطقها أشخاص من دون تفكير، حيث ظلَّت تحتدم في داخلي باستمرار. لا التكرار ولا التَّعليق السُّوسيو-سياسي بمقدورهما أن يلطِّفا من عنف عبارة: «لم أكن ‹أنتظره›». سرعان ما تهيَّأ لي أنني أرى رجلاً يرتدي مئزراً أبيض ويضع قفازات مطَّاطية، يكيل لي اللَّكمات صارخاً: «أنا لست سبَّاكاً»! وها هي هذه الجملة التي استوحاها بالتأكيد من مشهد مسرحي قصير لفيرناند راينو الذي كان وقتها يُضحك فرنسا بأكملها، تواصل ترتيب العالم في داخلي، وتفصل كما بضربة سَوط، الأطباء عن العملة، والنساء المجهضات والغالبين عن المغلوبين.)

استيقظتُ واللَّيل قد أرخى سدوله. سمعت وقع خطوات امرأة تدخل وتصرخ، آمرة إياي بأن أصمت. سألتها ما إذا كانوا قد استأصلوا لي المبيضين، فطمأنتني بفضاضة. قالت إنني أجهضتُ فحسب. كنت وحدي في الغرفة، وقد أُلبست قميصا من المستشفى. تعالى صراخُ رضيع وشعرت أنَّ بطني أصبح حوضاً مترهِّلاً.

عرفت أنني فقدت خلال اللَّيل الجسم الذي حملته

منذ المراهقة، بعضوه الحي والخفي، العضو الذي كان قد حوى عضو الرجل دون أن يتغيَّر - بل أصبح حيّاً وخفيّاً أكثر من ذي قبل. أما الآن فقد صرت أملك عضواً بارزاً وممزَّقاً، بطناً مكشوطة ومفتوحة من الخارج، وجسداً شبيهاً بجسد والدتي.

نظرتُ إلى الورقة المعلَّقة أسفل السَّرير، الورقة التي كُتب عليها «رحم حامل». كنت أقرأ هذه الكلمة «حامل» لأول مرة. لم أحبَّها. أدركت المعنى حينما تذكرت الكلمة اللاتينية *gravidus*، التي تعني ثقيل. لم أكن أفهم لماذا يكتبون هذا بما أنني لم أعد حاملا. هم لا يريدون إذا أن يخبروني بما حصل لي بالضبط.

وضعوا إلى جانبي، عند الظَّهيرة، عجينة اللَّحم على قطعة من القرنبيط الطَّري، تتوسَّطها شرائح وأضلاع كانت تملأ الصحن. لم أكن قادرة على تناول الطعام. كان يُخيَّل إليَّ أنهم يقدِّمون لي مشيمة لأكلها.

ساد الرِّواقَ ضجيجٌ يبدو أنه ينبعث من عربة الأكل. في فترات متباعدة كان يتعالى صوت امرأة تطلب من الطباخين في المطعم: «كريمة للسيدة فلانة أو للسيدة فلانة المرضعة»، كأن ذلك امتياز.

مرَّ الطبيب الذي كان مداوماً خلال اللَّيلة الفارطة. ظلَّ واقفاً في آخر الغرفة وقد بدا عليه الضيق. ظننت أنه يشعر بالخجل لرؤيتي أعامَل بطريقة سيِّئة في قاعة العمليَّات. أحسستُ بالانزعاج لأجله، لكني كنت مخطئة. إنه يشعر بالخجل فحسب -بما أنه لم يكن يعرف شيئاً عني- لأن طالبة من كلية الآداب تُعاملُ كعاملة نسيج أو بائعة في مونوبري، مثلما اكتشفته بنفسي في المساء ذاته.

أُطفئت الأنوار منذ وقت طويل. عادت الحارسة اللَّيلية وهي امرأة ذات شعر رمادي إلى غرفتي. اقتربت في صمت من أعلى سريري فاستشعرت لُطفها في ظل الأباجورة. ثم همست لي بنبرة مأنِّبة: «لماذا لم تقولي للطبيب، في اللَّيلة الماضية، أنك مثله؟» بعد بضع ثوان من التردُّد أدركت أنها تقصد: «من عالمه هو». لم يعلم بأنني طالبة إلَّا بعد عمليَّة الإجهاض، من خلال بطاقة الكلية من غير شك. مثَّلتْ بإيماء حَيرة الطَّبيب المقيم وغضبه وهو يردِّد: «لكن لماذا لم تخبريني بذلك لماذا»؟ كأنها كانت مستاءة هي أيضاً من موقفي. كان عليَّ أن أخمِّن أنها على حق، وأن الخطأ كان خطئي لو تصرَّف معي بعنف: لم يكن يعرف مع من يتحدَّث.

عندما غادرتْ غرفتي، وهي تلمِّح إلى عملية إجهاضي، ختمت قائلة: «أنت أفضل حالاً الآن». كانت تلك الكلمات

المعزِّية الوحيدة التي قيلت لي في المستشفى، والتي نلتها بفضل تواطؤ نسائي ربما، لا بسبب منح «الناس البسطاء» الحقَّ «للناس السَّامين» في أن يضعوا أنفسهم فوق القانون.

(لو عرفتُ اسم هذا الطَّبيب المقيم المناوب خلال اللَّيلة الفاصلة بين ٢٠ و٢١ يناير ٦٤، وتذكَّرته لما استطعت أن أمنع نفسي الآن من كتابته هنا. لكن ذلك سيكون انتقاماً ظالماً، لا جدوى منه، بقدر ما كان على تصرُّفه ألَّا يمثِّل إلا نموذجاً من الممارسة العامة).

بدأ صدري ينتفخ ويؤلمني. قيل لي إن ذلك يرجع إلى صعود الحليب. لم أتخيل أن بإمكان جسدي أن يصنع الحليب لتغذية جنين ميِّت يبلغ من العمر ثلاثة أشهر. كانت الطبيعة تواصل عملها آليّاً في الغياب. لفُّوا نصفي الأعلى بقطعة قماش. وكان صدري يتسطَّح أكثر فأكثر مع كلِّ لفَّة، كأنهم يرومون إدخال ثدييَّ إلى الدَّاخل. خَطر لي أنهما لن ينفرا مجدَّداً. وضعت إحدى الممرِّضات كوباً من منقوع الَأعشاب على طاولة السرير. «بعد أن تشربي كل هذا، لن تشعري بألم في صدرك».

عندما زارني جان ت ولـ.ي. وج.ب في المستشفى، رويت لهم حادثة النَّزيف وتكفُّلَ المستشفى بعلاجي التَّأديبي. رويت ذلك بنبرة مازحة استمتعوا بالإنصات إليها- نبرة ظلَّت كلُّ تفاصيلها محفورة في ذاكرتي. وبدأت أنا ولـ.ب نقارن بمرحٍ عمليَّتي إجهاضنا. روت لـ.ب أن بقَّالة الحي أخبرتها بأنها ليست في حاجة إلى الذهاب إلى باريس من أجل الإجهاض. كانت تسكن في الحي القريب امرأة لا تتقاضى إلا ثلاث مئة فرنك. أخذنا نمزح، ونحن نتحدَّث عن الفرنكات المئة التي كان باستطاعتي توفيرها. أصبحنا قادرين الآن على الضحك من التَّنكيد، ولم يمنعنا الخوف من كلِّ شيء من مخالفة القانون.

لا أذكر أنني قرأت شيئاً خلال الأيَّام الخمسة التي قضيتها في المستشفى. كانت المُسجِّلات ممنوعة. ولأول مرة منذ ثلاثة أشهر لم يكن لديَّ شيء أستمع إليه. فظللتُ مستلقية ومحدِّقة عبر النافذة إلى سُقوف جناح آخر من أجنحة المستشفى.

تعالى صراخ الرضَّع حديثي الولادة في نسق متواتر. لا يوجد مهد في غرفتي، لكن أنا أيضاً وضعت على الأرض.

لم أكن أرى نفسي مختلفة عن نساء الغرفة المجاورة. بدا أنني أعرف أكثر منهن سبب هذا الغياب. كنت قد ولدت في حمَّام الحيِّ الجامعي حياة وموتاً في آن معاً. شعرتُ أنني مأخوذة، للمرَّة الأولى، في سلسلة نساء تمرُّ عبرهن الأجيال. مرَّت أيام شتائيَّة رمادية كنت أطفو خلالها في النور وسط العالم.

غادرتُ المستشفى يوم السبت الموافق للخامس والعشرين من يناير. تكفَّل ل.ب وج.ب بالإجراءات، ثم رافقاني إلى المحطَّة. اتَّصلتُ بالدكتور ن من مكتب البريد المجاور لأعلمه بأنَّ كلَّ شيء قد انتهى. نصحني بتناول البنيسيلين مرة أخرى - لم يصفوا لي أيَّ دواء في المستشفى - عدت إلى منزل والدَيَّ وتعلَّلت بالإصابة بالأنفلونزا حتى أنام على الفور، وطلبتُ منهما استدعاء الدكتور ف، طبيب العائلة الذي كان عليه أن يفحصني سراً، ويصف لي البنيسيلين بعد أن أعلمه الدكتور ن بإجهاضي.

فور ابتعاد والدتي، همس لي الدكتور ف بحماس، متسائلاً عمَّن فعل بي هذا. ثم قال هازئاً: «لماذا ذهبت إلى باريس؟ تسكن في حيك الأم... (لم أكن أعرف الاسم

الذي قاله لي). إنها تتقن فعل هذا. عندما لم أعد الآن في حاجة إليهن، ها قد برزت فجأة صانعات ملائكة من كلِّ مكان. لكني لم أكن أتوهَّم على الإطلاق. كان الدكتور ف، الذي يُصوِّتُ لليمين والذي يجلس في الصف الأول خلال قدَّاس الأحد، عاجزاً عن أن يمدَّني بالاسم الذي احتجت إليه في البداية إلا بعد فوات الأوان. أخذ يستمتع، وهو جالس على سريري، ومن دون جهد، بالتواطؤ الذي طالما أظهره تجاه تلميذة نجيبة تنتمي إلى «الوسط الفقير»، تلميذة يمكن أن تنتقلَ إلى عالمه.

علقت بمُخيِّلتي ذكرى واحدة طوال الأيام التي قضيتها في منزل والدَيَّ بعد خروجي من المستشفى: أنا شبه مستلقية على سريري، النافذة مفتوحة، أقرأ شعرا لجيرار دي نيرفال في طبعة سلسة ١٠-١٨. أنظر إلى ساقيَّ في الجورب اللَّصيق الأسود، فتبدوان لي ساقَي امرأة أخرى.

عدت إلى رُوان في شهر فبراير البارد والمشمس. لكنَّني لم أشعر أنني عدت إلى العالم ذاته. وجوه المارة، السيارات، الأطباق على طاولات مطعم «أو».. بدا كل ما

كنت أراه لي طافحاً بالمعاني. غير أنّني بتُّ عاجزة، بسبب هذه المبالغة في حدِّ ذاتها، عن الإمساك بمعنى واحد من هذه المعاني. كانت ثمة الكائنات والأشياء الطّافحة بالمعنى من جهةٍ، والأحاديث والكلمات التي لم تكن تعني شيئاً من جهة ثانية. عشت حمّى الوعي الخالص فيما وراء اللُّغة التي لم يكن اللّيل يقطعها. ونمتُ نوماً هادئاً كنت فيه واثقة من صحوي، بينما كان يطفو أمامي جنين أبيض شبيه بذلك الكلب الذي واصل، بعد أن ألقِي بجثّته في الأثير، تتبُّع روّاد الفضاء في رواية لجيل فيرن.

كنت أذهب إلى المكتبة لأشتغل على بحثي الذي هجرته منذ منتصف ديسمبر. كانت القراءة تستغرق مني وقتا طويلا، حيث شعرت أنّني أتهجّى الكلمات. وكان يظهر لي موضوع بحثي الجامعي، المرأة في التيّار السوريالي، ذا شمولية مضيئة. لكني لم أتمكّن من تحليل هذه الرؤية في صيغة أفكار، أو التّعبير عما كنت أراه في شكل صورة من الحلم، في أسلوب مسترسل، خالٍ من التّزويق، وإن كانت هذه الصورة واقعيّة على نحو لا يقبل الجدل، بل أكثر واقعية من الطّلبة المنكبِّين على الكتب والمُشرف الذي يحوم حول الفتيات وهنَّ بصدد البحث عن التصنيفات في الملف. كنت ثملة بذكاء خالٍ من الكلمات.

استمعتُ وأنا في غرفتي إلى *الآلام من وجهة نظر يوحنا القديس لباخ*، عندما ارتفع الصَّوت الوحيد للإنجيلي وهو يتلو بالألمانيَّة آلام المسيح. بدا لي أنَّ محنتي التي امتدَّت من أكتوبر حتى يناير كانت مرويَّة في لغة مجهولة. ثم تبدأ الجوقة في الإنشاد: *أين! أين!* فُتح أفق واسع، مطبخ ممر كاردينيه، والمسبار، والدم، كان كلُّه يسيل في وجع العالم والموت الأبدي. لقد شعرتُ أنَّني نجوت.

سرتُ في الطُّرقات حاملة سرَّ اللَّيلة الفاصلة بين ٢٠ و٢١ يناير في جسدي، كأنه شيء مقدَّس. كنت أجهل ما إذا كنت في نهاية الفزع أم الجمال. كنت أشعر بالفخر، وهو من دون شكٍّ نفس الفخر الذي يشعر به البحَّارة الوحيدون ومدمنو المخدَّرات واللُّصوص، فخرُ وصولي إلى حيث لم يطمح الآخرون الذهاب أبداً. إنه بلا ريب شيء ما من هذا الفخر ما دفعني لكتابة هذه الرواية.

في إحدى الأمسيات، دعتني «أو» إلى سهرة. جلستُ في آخر القاعة، أنظر إلى الجميع يرقصون متعجبة من متعة الآخرين، كان ضمنهم وجه آني ل. المشرق، وهي في فستانها الصُّوفي الأبيض المواكب للموضة في ذلك الشتاء،

حيث أعادني إلى نفسي، أنا الضَّيفة الزائدة في احتفال كان معناه مجهولاً بالنسبة إليَّ.

ذات ظهيرة، تبعت طالباً في الطب يُدعى جيرار هـ. إلى غرفته في شارع بوكيه. نزع عني قميصي وحمَّالة صدري، فرأيت صدري وقد صغر حجمه وهبط- كان ثدياي مليئين بالحليب قبل أسبوعين. وددت لو أحدِّثه عن ذلك الأمر، وعن السيدة ب-ر، ثم سرعان ما فقدت كلَّ رغبة في هذا الشاب. واكتفينا بأكل كعكٍ كانت والدته قد أعدَّته من أجله.

وذات ظهيرة ثانية، دخلت إلى كنيسة سانت-باتريس بالقرب من شارع لا مارن، لأحدِّث كاهنا عن عمليَّة إجهاضي. لكني سرعان ما أدركت خطئي. شعرتُ أنني في النور، لكن كنت في نظره غارقة في الجريمة. عرفت عندما غادرتُ الكنيسة أن زمن الدين قد انتهى بالنسبة إليَّ.

ولاحقاً، في شهر مارس، التقيت في المكتبة بجاك س.، الطالب الذي سبق أن رافقني إلى الباص، عندما ذهبت لزيارة اختصاصيّ نساء وتوليد للمرَّة الأولى. سألني عن مدى تقدمي في بحثي الجامعي. ثمَّ خرجنا إلى الرَّدهة،

حيث بدأ، كعادته، يحوم حولي وهو يتحدَّث. سيسلِّم بحثه عن كريتيان دي تروا في شهر مايو. بدا مندهشاً لكوني بدأت العمل بالكاد على رسالتي. أفهمته عبر أسلوب مراوغ أنني تعرَّضت لعمليَّة إجهاض. لعلَّني فعلت ذلك بسبب الكره الطَّبقي، تحدِّياً لهذا الفتى، ابن مدير المصنع الذي يتحدَّث عن العمَّال، كأنه يتحدَّث عن عالَم آخر. أو لعلَّني قلت ذلك بدافع الكبرياء. عندما أدرك معنى كلامي، توقَّف عن الحركة وعيناه جاحظتان، تُحدِّقان بي، حيث وقع، تحت تأثير مشهد لامرئي، فريسة لافتنان طالما استشعرته عند الرجال في ذاكرتي. ثمَّ أخذ يردد في تيه: «أرفع قبَّعتي لك يا عزيزتي. أرفع قبَّعتي لك.»

عدت إلى الدكتور ن. وبعد فحص دقيق، قال لي مبتسماً، بنبرة طافحة بالمدح والسُّرور، إنني نجوت فعلاً. أخذ هو الآخر يحرِّضني، من دون وعي منه، على تحويل العنف الذي تعرَّضت له إلى انتصار فرديٍّ. ثمَّ أمدَّني بحاجز مهبليّ، كوسيلة للمنع، لأضعه وسط مهبلي وأنبوبين لتجميد المني.

لم أرسل المسبار إلى السيِّدة ب-ر. واعتقدت أن

بإمكاني أن أعفى من دفع سعره. ذات يوم، ركبت سيارة والديَّ وذهبت للإلقاء به في الغابة على حافَّة الطريق. لكني ندمت على تصرُّفي ذاك لاحقاً.

لا أعرف متى عدت إلى العالم الذي نَصِفه بالعالم العادي. إنَّها عبارة مبهمة، لكن الجميع يدركُ معناها، أي المعنى الذي لا تغدو فيه رؤية حوض الغسل اللامع، أو رؤوس المسافرين في قطار مشكلاً أو مصدر ألم. بدأت في تحرير بحثي الجامعيِّ. اعتنيت بأطفال في المساء ونظَّمت الاتِّصالات الهاتفية عند اختصاصيّ في القلب، حتى أسدِّد شيئاً فشيئاً مبلغ عمليَّة الإجهاض. ذهبت إلى السينما لمشاهدة فيلم *أحجية* مع أودريه هيبورن وكاري غرانت، و*جسد الموزة* مع جان مورو وبيلموندو. أفلام لم يتركوا لي أيَّ ذكرى. قصصت شعري الطَّويل، وأبدلت نظارتي بعدسات لاصقة كان تركيبها على عينيَّ يبدو لي أكثر صعوبة وخطورة من الحاجز المهبلي.

لم أر السيدة ب–ر مطلقاً. لكنني لم أكفَّ عن التَّفكير فيها، من دون وعي مني، هذه المرأة الجشعة من دون شك–

والتي تعيش في فقر رغم ذلك- انتزعتني من أمي وألقت بي في العالم. إليها وحدها يجب أن أهدي هذا الكتاب.

طوال سنوات كانت الليلة الفاصلة بين ٢٠ و٢١ يناير عيد ميلاد.

أنا أدرك اليوم أنني كنت في حاجة إلى هذه المحنة وهذه التَّضحية من أجل أن تولد في أعماقي الرغبة في إنجاب أطفال، وأن أقبل عنف هذا التكاثر في جسدي، وأتحول بدوري إلى معبرِ أجيال.

انتهيت من تجسيد ما بدا لي شبيهاً بتجربة إنسانية كاملة، تجربة الحياة والموت، تجربة الزَّمن والأخلاق والممنوع والقانون، تجربة عشتها من أوِّلها إلى آخرها عبر الجسد، عبر الكلمات.

محوت الشُّعور الوحيد بالذَّنب الذي لم يسبق لي أن عشته في علاقة بهذا الحدث الذي وقع لي وعجزت عن ردِّه. مثل عطيَّة تقبَّلتُها وضيَّعتُها. لأنه في ماوراء كلِّ الأسباب الاجتماعيَّة والنفسية التي يمكن أن أجدها في كل

ما عشته، هناك سبب أنا واثقة منه أكثر من أيِّ شيء آخر: الأشياء حدثت لي كي أدرك معناها ولعلَّ الهدف الحقيقي في حياتي هو فقط التالي: أن يتحوَّل جسدي وحواسِّي وأفكاري إلى كتابة، أي إلى شيء ما واضح وشامل، إلى وجودي الذائب بأكمله في أذهان الآخرين وحياتهم.

في تلك الظهيرة، عدت إلى ممر كاردينيه في الدائرة ١٧. حضَّرتُ خطّاً سيري بالاستعانة بخريطة باريس. كنت أرغب في إيجاد المقهى الذي انتظرت فيه موعدي مع السيدة ب-ر والكنيسة التي مكثت فيها وقتاً طويلاً، كنيسة سانت-شارل-باروميي. لم تكن توجد على الخريطة إلّا إشارة إلى كنيسة سانت-شارل-دي-مونسو. اعتقدت أن اسم الكنيسة نفسها هو الذي تغير. نزلت إلى محطة مالارب، وسرت حتى وصلت إلى شارع توكفيل. كانت السَّاعة تشير إلى الرَّابعة تقريباً. وكان الجو بارداً جداً والشَّمس مشرقة. وُضعت لوحة جديدة في مدخل ممر كاردينيه، فوقها اللّوحة القديمة التي اسودَّ لونها وأصبحت غير مقروءة، حيث تُركت مكانها. كان الشَّارع خالياً. عُلِّقت لافتة كبيرة في الطابق الأرضي لإحدى الواجهات، كُتبَ عليها: «جمعيَّة النَّاجين من المعسكر النازي والمرحَّلين من مقاطعة سين- إي- واز»، لافتة لا أتذكر أنني رأيتها من قبل.

وصلت إلى رقم عمارة السيدة ب-ر. توقَّفتُ أمام الباب الذي كان مغلقاً برمز رقمي. ثمَّ واصلت السَّير في الشَّارع وسط الطَّريق، محدِّقة في آخره وفي كوَّة النُّور في الجدران، لم ألتق بأي أحد ولم تمرَّ أية سيارة. شعرتُ أنني بصدد إعادة نفس حركات شخصيَّة ما دون أن أحسَّ بأي شيء.

في آخر ممرٍّ كاردينيه، استدرتُ نحو اليمين وبحثت عن الكنيسة. كانت كنيسة سانت-شارل-دي-مونسو، لا باروميه، والتي انتصب داخلها تمثال للقدِّيسة ريتا. افترضت أنه كان عليَّ أن أشعل لها شمعة في ذلك اليوم، إذ يقال إنها كانت قدِّيسة «الأسباب اليائسة». سرت مجدداً في شارع توكفيل، وتساءلت في أي مقهى انتظرتُ موعدي، وأنا أحتسي كوباً من الشاي. لا شيء في الخارج يذكِّرني بشيء. لكني كنت واثقة أنني سأعرفه من حمَّامه في القبو حيث نزلت مباشرة قبل ذهابي إلى السيدة ب-ر.

دخلت إلى مقهى بْرازا. طلبت شوكولا، ثم أخرجت أوراق الامتحانات قصد تصحيحها. لكني لم أقرأ سطراً واحداً. ظللت أردِّد في نفسي أنه يجب عليَّ الذَّهاب لرؤية الحمام. كان عاشقان شابان يتبادلان القبل، وهما منحنيان

تحت الطاولة. وقفت أخيراً وسألت النادل عن الحمَّام. أشار إلى الباب في آخر القاعة التي كانت تفتح مباشرة على حُجيرة بحوض غسيل تعلوه مرآة. على اليمين باب ثان وهو باب الحمام. كان مرحاضاً على الطريقة التركية. لم أعد أذكر ما إذا كان لمرحاض المقهى منذ خمس وثلاثين سنة الشكل نفسه. في تلك الفترة، لم يكن شيئاً يمكن أن يثير انتباهي. كان لكل المراحيض العامَّة تقريباً الشَّكل نفسه: حفرة في الإسمنت بموضع قدم من كل جانب توضع عليها القدم ونربض فوقه.

خمَّنتُ، وأنا على رصيف محطَّة مالارب، أنني عدت من ممر كاردينيه، معتقدة أنَّ مكروهاً سيحصل لي.

من فبراير إلى أكتوبر ٩٩

هذا الكتاب

أنا أدرك اليوم أنني كنت في حاجة إلى هذه المحنة وهذه التَّضحية من أجل أن تولد في أعماقي الرغبة في إنجاب أطفال، وأن أقبل عنف هذا التكاثر في جسدي، وأتحول بدوري إلى معبر أجيال.

انتهيت من تجسيد ما بدا لي شبيهاً بتجربة إنسانية كاملة، تجربة الحياة والموت، تجربة الزَّمن والأخلاق والممنوع والقانون، تجربة عشتها من أوَّلها إلى آخرها عبر الجسد، عبر الكلمات.

الغلاف : سكينة صلوَن

ISBN 978-9922605463

9 789922 605463

